سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٠٣)

التعليق على

القواعد الحسان

المتعلقة بتفسير القرآن

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبع بإشراف مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

التعليق على

القواعد الحسان

المتعلقة بتفسير القرآن

ⓒ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
التعليق على القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن./ محمد بن صالح العثيمين. ـ الرياض، ١٤٣١هـ
٣٠٤ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ١ ـ ٠ ـ ٩٠٢٠٣ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القرآن ـ مناهج التفسير أ. العنوان
ديوي ٢٢٧,٢ ١٤٣١/٧٦٦٠

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
إلا لمن أراد طبعه لتوزيعه مجاناً بعد مراجعة
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
عنيزة ـ ص ب ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ ـ ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
www.binothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الطبعة الثانية
١٤٣٥هـ

دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٥٧
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٣ - الرقم الإضافي: ٨٤٠٦ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٨١٣٧٠٦ - ٠٥٦٣٤٧٦٣٨٨ - بيروت
هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج.م.ع - محمول: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨
تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - البريد الإلكتروني:
aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليماً كثيراً. **أما بعد:**

فلقد كان من توجيهات صاحب الفضيلة العلّامة شيخنا محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله ـ لطلاب العلم، أن يبادروا بالعناية والاهتمام، والسعي الحثيث لإدراك حصيلة وافرة من القواعد الكلية للعلوم الشرعية، وأصولها الجامعة، وضوابطها العامة التي قررها أهل العلم لتجمع الشوارد وتبنى عليها المسائل. وتعينُ على فهم كلام الله سبحانه وتعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن أجل هذه الغاية، قرر ـ رحمه الله ـ في حلقته العلمية تدريس العديد من مؤلفات الأصول والقواعد، وقد كان منها هذا الكتاب «**القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن**» الذي ألفه عام ١٣٦٥هـ شيخه الأول صاحب الفضيلة الشيخ العلّامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تغمده الله بواسع رحمته ورضوانه، وأسكنه فسيح جناته؛ وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً.

وقد جاء هذا التعليق على الكتاب عام ١٤٠٧هـ، ضمن الدروس العلمية التي سجلت صوتياً وكان يعقدها ـ رحمه الله ـ في جامعه بمدينة عنيزة.

وإنفاذاً للقواعد والتوجيهات التي قررها ـ فضيلته ـ لإخراج تراثه العلمي، عهدت «مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية» إلى الشيخ الدكتور أحمد بن عبد الرحمن القاضي ـ أثابه الله ـ لإعداد هذا التعليق للطباعة والنشر فجزاه الله خيراً.

نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجزي فضيلة شيخنا خير الجزاء، ويضاعف له المثوبة والأجر، ويعلي درجته في المهديين، إنه سميع قريب، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله، خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد الأولين والآخرين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللجنة العلمية

في مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

١٢/٦/١٤٣١هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الحمد في الآخرة والأولى، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المصطفى وخليله المجتبى صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن بهداهم اهتدى وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها. وحيث كان خير الحديث كتاب الله فإن فهمه وتدبره والعمل به تصديقاً للأخبار وعملاً بالأحكام أنفس ما بذل المرء فيه أنفاسه وأنفع ما أمضى فيه أوقاته ولهذا كان علم تفسير كلام الله تعالى أهم العلوم وأفضلها وكان الصحابه رضي الله عنهم لا يتجاوزون عشر آيات من القرآن حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل فتعلموا بذلك القرآن والعلم والعمل جميعاً.

ولما كان الرجوع إلى أصول العلم وقواعده ييسر لطالب العلم الوصول إلى فروعه وجزئياته ويفتح له آفاقاً واسعة في التطبيق والتخريج وأدرك ذلك شيخنا عبد الرحمٰن بن ناصر بن سعدي ـ رحمه الله ـ كتب ما تيسر من قواعد التفسير ما بلغ إحدى وسبعين قاعدة اشتملت على قواعد مهمة وفوائد جمة يظهر ذلك لمن قرأها بتدبر وتمهل. والله أسأل أن ينفع بها مؤلفها وقارئها ومن أعان على نشرها إنه جواد كريم.

كتبه

محمد الصالح العثيمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الحمد في الآخرة والأولى وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المصطفى وخليله المجتبى صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن بهداهم اهتدى وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها . وحيث كان خير الحديث كتاب الله فإن فهمه وتدبره والعمل به تصديقاً للأخبار وعملاً بالأحكام أنفس ما بذل المرء فيه أنفاسه وأنفع ما أمضى فيه أوقاته ولهذا كان علم تفسير كلام الله تعالى أجل العلوم وأفضلها وكان الصحابة رضي الله عنهم لا يتجاوزون عشر آيات من القرآن حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل فتعلموا بذلك القرآن والعلم والعمل جميعاً .

ولما كان الرجوع إلى أصول العلم وقواعده ييسر لطالب العلم الوصول إلى فروعه وجزئياته ويفتح له آفاقاً واسعة في التطبيق والتخريج وأدرك ذلك شيخنا عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله كتب ما تيسر من قواعد التفسير ما بلغ إحدى وسبعين قاعدة اشتملت على قواعد مهمة وفوائد جمة يظهر ذلك لمن قرأها بتدبر وتمهل . والله أسأل أن ينفع به مؤلفها وقارئها ومن أعان على نشرها إنه جواد كريم .

كتبه : محمد الصالح العثيمين

محمد العثيمين

نص محرر عن الكتاب بقلم الشارح

فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله تعالى -

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً

أما بعد فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم جليلة المقدار عظيمة النفع تعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله والاهتداء به ومخبرها أجل من وصفها فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير ومناهج الفهم عن الله ما يغني عن كثير من التفاسير الخالية من هذه البحوث النافعة وأسأل الله أن يتم ما قصدنا إليه ويفتح لنا من خزائن جوده وكرمه ما يكون سبباً للوصول إلى العلم النافع والهدى الكامل واعلم أن علم التفسير أجل العلوم على الإطلاق وأفضلها وأوجبها وأحبها إلى الله لأن الله أمر بتدبر كتابه والتفكر في معانيه والاهتداء بآياته وأثنى على القائمين بذلك وجعلهم في أعلى المراتب ووعدهم أسنى المواهب فلو أنفق العبد جميع عمره في هذا الفن لم يكن ذلك كثيراً في جنب ما هو أفضل المطالب وأعظم المقاصد وأصل الأصول كلها وقاعدة أساسات الدين وصلاح أمور الدين والدنيا والآخرة وكانت حياة العبد زاهرة بالهدى والخير والرحمة وطيب الحياة والباقيات الصالحات فلنشرع الآن بذكر القواعد والضوابط على وجه الإيجاز الذي يحصل به المقصود لأنه إذا انفتح للعبد الباب وتمهدت عنده القاعدة وتدرب منها بعدة أمثلة توضحها وتبين طريقها ومنهجها لم يحتج إلى زيادة البسط وكثرة التفاصيل ونسأل الله أن يمدنا بعونه ولطفه وتوفيقه وأن يجعلنا هادين مهتدين بمنه وكرمه

القاعدة الأولى في كيفية تلقي التفسير

كل من سلك طريقاً وعمل عملاً وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه فلا بد أن يفلح وينجح كما قال تعالى وأتوا البيوت من أبوابها وكلما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر وتعين البحث التام عن أمثل وأحسن الطرق الموصلة إليه ولا ريب أن ما نحن فيه هو أهم الأمور وأجلها وأصلها فاعلم أن هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخلق وإرشادهم وأنه في كل وقت وزمان يرشد إلى أهدى الأمور وأقومها إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم فعلى الناس أن يتلقوا معنى كلام الله كما تلقاه الصحابة رضي الله عنهم فإنهم إذا قرؤوا عشر آيات أو أقل أو أكثر لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ما دلت عليه من الإيمان والعلم والعمل فينزلونها على الأحوال الواقعة فيعتقدون ما احتوت عليه من العقائد والأخبار وينقادون لأوامرها ونواهيها ويدخلون فيها جميع ما يشاهدون من الحوادث والوقائع الموجودة بهم وبغيرهم ويحاسبون أنفسهم هل هم قائمون بها أو مخلون وكيف الطريق إلى الثبات على الأمور النافعة وتدارك ما نقص منها وكيف التخلص من الأمور الضارة فيهتدون بعلومه ويتخلقون بأخلاقه وآدابه ويعلمون أنه خطاب من عالم الغيب والشهادة موجه إليهم ومطالبون بمعرفة معانيه والعمل بما يقتضيه فمن سلك هذا الطريق الذي سلكوه وجد واجتهد في تدبر كلام الله انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير وقويت

مقدمة الكتاب محررة بقلم المؤلف

فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ

خاتمة الكتاب محررة بقلم المؤلف

فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله تعالى -

بسم الله الرحمن الرحيم

قال المؤلف فضيلة الشيخ العلّامة عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ في مقدمة كتابه:

«القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن»[1].

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهده أن محمداً عبده ورسوله، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

أما بعد...

فهذه أُصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم، جليلة المقدار، عظيمة النفع، تُعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله، والاهتداء به، ومَخْبَرُها أجل من وصفها؛ فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير ومنهاج الفهم عن الله ما يعين على كثير من التفاسير الحالية في هذه البحوث النافعة.

أرجو الله وأسأله أن يتمّ ما قصدنا إيراده، ويفتح لنا من خزائن جوده وكرمه ما يكون سبباً للوصول إلى العلم النافع، والهُدى الكامل.

واعلم أن علم التفسير أجلّ العلوم على الإطلاق، وأفضلها،

---

(١) طبقاً للطبعة المعتمدة من أبناء المؤلف الصادرة بعناية الشيخ خالد بن عثمان السبت، دار ابن الجوزي ١٤٢١هـ.

وأوجبها، وأحبّها إلى الله؛ لأن الله أمر بتدبّر كتابه، والتفكر في معانيه، والاهتداء بآياته، وأثنى على القائمين بذلك، وجعلهم في أعلى المراتب، ووعدهم أُسنى المواهب، فلو أنفق العبد جواهر عمره في هذا الفن لم يكن ذلك كثيراً في جنب ما هو أفضل المطالب، وأعظم المقاصد، وأصل الأُصول كلها، وقاعدة أساسات الدين، وصلاح أُمور الدين والدنيا والآخرة، وكانت حياة العبد زاهرة بالهدى والخير والرحمة، وطيب الحياة، والباقيات الصالحات.

فلنشرع الآن بذكر القواعد والضوابط على وجه الإيجاز الذي يحصل به المقصود؛ لأنه إذا انفتح للعبد الباب، وتمهَّدت عنده القاعدة، وتدرَّب منها بعدّة أمثلة توضحها، وتبيّن طريقها ومنهجها، لم يحتج إلى زيادة البسط، وكثرة التفاصيل.

ونسأله أن يُمدّنا بعونه ولطفه وتوفيقه، وأن يجعلنا هادين مهتدين بمنِّه وكرمه.

التعليق

قال فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى:

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبيّنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أخذ المؤلف شيخنا عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته ـ هذه القواعد في رمضان،

وهو يقرأ القرآن ـ كما يظهر ـ، ابتداء من أول رمضان إلى سادس شوال، في أيام قراءة القرآن وأيام الصوم. ثم إن ثناءه عليها ليس بغريب؛ لأن ثناء أهل العلم على مؤلفاتهم لا يقصدون به الفخر أو التفاخر على الخلق، وإنما يقصدون شدّ الناس إلى قراءتها والالتفاف حولها.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: لو أعلم أن أحداً تناله الإبل أعلم بكتاب الله مني لرحلت إليه؛ فهو لم يقصد مدح نفسه، لكنه قصد حثّ الناس على أخذ العلم منه وعلى تمسكهم بطلب العلم. وابن مالك ـ رحمه الله ـ أثنى على ألفيته، فقال:

تقرب الأقصى بلفظٍ موجز وتبسط البذل بوعدٍ منجز
وتقتضي رضاً بغير سخط فائقة ألفية ابن معطي

المهم، أن شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ حينما أثنى على هذا الكتاب لا يريد بذلك أن يفتخر به على الناس، وأنا أعرفه تمام المعرفة، فهو من أشدّ الناس تواضعاً، ولكنه ـ رحمه الله تعالى ـ أراد أن يشدّ الناس إلى هذا الكتاب لينتفعوا به. ونسأل الله تعالى أن يحقق له ما يرجوه وأن يجزل له المثوبة والأجر.

القاعدة الأولى:

في كيفية تلقي التفسير

كل مَن سلك طريقاً، وعمل عملاً، وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح وينجح؛ كما قال تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

وكلَّما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر، وتعيَّن البحث التام عن أمثل وأحسن الطرق الموصلة إليه، ولا ريب أن ما نحن فيه هو أهم الأمور وأجلّها وأصلها.

فاعلم أن هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخلق وإرشادهم، وأنه في كل وقت وزمان يرشد إلى أهدى الأمور وأقْومها ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]؛ فعلى الناس أن يتلقّوا معنى كلام الله كما تلقَّاه الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم كانوا إذا قرؤوا عشر آيات، أو أقل، أو أكثر، لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ما دلّت عليه من الإيمان والعلم والعمل، فينزلونها على الأحوال الواقعة، فيعتقدون ما احتوت عليه من الأخبار، وينقادون لأوامرها ونواهيها، ويُدخلون فيها جميع ما يشهدون من الحوادث والوقائع الموجودة بهم وبغيرهم، ويحاسبون أنفسهم: هل هم قائمون بها، أو مُخلُّون؟ وكيف الطريق إلى الثبات على الأمور النافعة، وإيجاد ما نقص منها؟ وكيف التخلّص من الأمور الضارة؟ فيهتدون بعلومه، ويتخلَّقون بأخلاقه وآدابه، ويعلمون أنه خطاب من عالم الغيب

والشهادة، موجَّه إليهم، ومطالبون بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه.

فمن سلك هذا الطريق الذي سلكوه، وجدَّ واجتهد في تدبُّر كلام الله، انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير، وقويت معرفته، وازدادت بصيرته، واستغنى بهذه الطريقة عن كثرة التكلُّفات، وعن البحوث الخارجية، وخصوصاً إذا كان قد أخذ من علوم العربية جانباً قوياً، وكان له إلمام واهتمام بسيرة النبيّ ﷺ وأحواله مع أوليائه وأعدائه، فإن ذلك أكبر عون على هذا المطلب.

ومتى علم العبد أن القرآن فيه تبيان كل شيء، وأنه كفيل بجميع المصالح، مبيِّن لها، حاثٌّ عليها، زاجر عن المضارِّ كلها، وجعل هذه القاعدة نصب عينيه، ونزَّلها على كل واقع وحادث سابق أو لاحق، ظهر له عظم موقعها وكثرة فوائدها وثمرتها.

التعليق

خلاصة هذه القاعدة: أن الله أنزل القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان، وأنه يهدي للتي هي أقوم، ومتى آمنا بذلك فإنه يجب علينا أن نسلك الطريق التي تُوصلنا لمعرفة هذا القرآن، والاهتداء به؛ ولنعلم أننا إذا سلكنا هذه الطريق، فإن الله تعالى يبارك لنا فيما قصدنا، وفيما أردنا، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. وكلما تدبّر الإنسان هذا القرآن العظيم، وتذكر بما فيه، فإنه تحصل له بركته عليه في عمره وفي عمله، وفي يقينه وفي جميع أحواله. وإذا أردت أن تأخذ شاهداً على هذا، فانظر إلى أعمار مَن سبقنا من سلف في هذه

الأُمة، كيف يحصلون على الخير الكثير العظيم؟! ونتعجب كيف يكتبون هذا الشيء وكيف يعملون هذا الشيء، فضلاً عن الإعداد له وما يسبقه من تهيئة أبدانهم وقلوبهم وأفكارهم، كل هذا ببركة هذا القرآن العظيم، فعليك أن تشدّ يديك به، وأن تعضّ عليه بالنواجذ، وأن تعلم أنك متى عملت به في ما وجّهه الله عز وجل من تدبّر آياته وتذكره، فإنك ستنال السعادة في الدنيا والآخرة، وهؤلاء سلفنا الكرام رضوان الله عليهم ـ الصحابة ـ لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلّموها وما فيها من العلم والعمل؛ فتعلّموا القرآن لفظاً والعلم والعمل جميعاً، ولهذا كان الواحد منهم إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فيهم، أي: صار عظيماً محترماً؛ لأنهم لا يقرأون كما نقرأ نحن؛ مجرد ألفاظ نمرّرها على اللسان ولا تصل إلى القلب أحياناً، ولكنهم يقرأون بتدبر وتذكر واتّعاظ. والذي نزع البركة من علمنا أننا لا نعمل به ولا نتذكر.

فهذا هو خلاصة هذه القاعدة: أن القرآن يهدي للتي هي أقوم، وأنه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان. وإذا كان كذلك، فعلينا أن نصل إلى هذا الجوهر الثمين، وهو الهدى والبيان والتذكر حتى تحصل لنا البركة في أعمالنا وأعمارنا.

❑ ❑ ❑

ويلتحق بهذه القاعدة:

العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وهذه قاعدة نافعة جدّاً، بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير، وعلم غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير، ويقع الغلط والارتباك. وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم، فمتى راعيتَ القاعدة السابقة، وعرفت أن ما قاله المفسِّرون من أسباب النزول إنما هي أمثلة توضح الألفاظ، ليست الألفاظ مقصورة عليها، فقولهم: «نزلت في كذا، وفي كذا»، معناه: أن هذا مما يدخل فيها، ومن جملة ما يُراد بها؛ فإنها ـ كما تقدم ـ إنما أُنزل القرآن لهداية أول الأُمة وآخرها، والله تعالى قد أمرنا بالتفكر والتدبُّر لكتابه، فإذا تدبّرنا الألفاظ العامة، وفهمنا أن معناها يتناول أشياء كثيرة؛ فلأي شيء نخرج بعض هذه المعاني، مع إدخالنا ما هو مثلها ونظيرها؟

التعليق

وعلى هذا، فإذا ادّعى شخص خروج فرد من أفراد العموم من لفظه، قلنا له: أين الدليل؟ لأن الأصل: أن العام شامل لجميع أفراده. قال العلماء: وصورة السبب قطعية الدخول وما عداها فدخولها ظنّي، العام يشمل صوراً متعددة، فمثلاً قضية المرأة[1] التي

---

(١) أخرجه أحمد (٦/٤٦)؛ وابن ماجه (١٨٨)؛ والنسائي (١١٥٧٠)، ورواه البخاري تعليقاً (٧٣٨٦).

اشتكت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام زوجها، هذه قطعية الدخول في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [المجادلة: ٣]، وظِهَارُ زيد وعمرو بعد ذلك ظنّية الدخول؛ لاحتمال أن لا يراد بالعموم جميع أفراده، لكن الحكم يشملها، إما بالعموم اللفظي، وهو الصحيح، وإما بالعموم المعنوي، وهو القياس لعدم الفارق.

❑ ❑ ❑

ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعها سمعك، فإنه إما خير تُؤمر به، وإما شرّ تُنهى عنه»[1].

فمتى مرَّ بك خبر عن الله، وعمّا يستحقه من الكمال، وما يتنزَّه عنه من النقص، فأثْبِتْ جميع ذلك المعنى الكامل الذي أثبته لنفسه، ونزِّهه عن كل ما نزَّه نفسه عنه. وكذلك إذا أخبر عن رسله، وكتبه، واليوم الآخر، وعن جميع الأمور السابقة واللاحقة، جزمت جزماً لا شكّ فيه أنه حق على حقيقته؛ بل هو أعلى أنواع الحق والصدق ﴿... وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] و﴿حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وإذا أمر بشيء نظرت إلى معناه، وما يدخل فيه وما لا يدخل، وأن ذلك موجَّه إلى جميع الأُمة. وكذلك في النهي؛ ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله أصل الخير والفلاح، والجهل بذلك أصل الشرّ والجفاء، فمراعاة هذه القاعدة أكبر عون على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، والقرآن قد جمع أجلّ المعاني وأنفعها وأصدقها بأوضح الألفاظ وأحسنها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، يوضح ذلك ويبيِّنه وينهج طريقه:

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٦)؛ وسعيد بن منصور (٥٠)؛ وابن أبي حاتم كما نقله عنه ابن كثير في التفسير (٢/ ٢)؛ والبيهقي في الشعب (١٨٨٦)؛ وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٠)، وفي سنده انقطاع.

الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وأسماء الأجناس، تفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه.

وقد نصّ على ذلك أهل الأصول، وأهل العربية، واتفق على اعتبار ذلك أهل العلم والإيمان.

فمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] أدخل في هذه الأوصاف كل ما تناوله من معاني الإسلام، والإيمان، والقنوت، والصدق إلى آخرها. وأن بكمال هذه الأوصاف يكمل لصاحبها ما رُتِّب عليها من المغفرة والأجر العظيم، وبنقصانها ينقص، وبعدمها يفقد. وهكذا كل وصف رُتِّب عليه خير وأجر وثواب، وكذلك ما يقابل ذلك: كل وصف نهى الله عنه، ورتّب عليه وعلى المتَّصِف به عقوبة، وشراً، ونقصاً، يكون له من ذلك بحسب ما قام به من الوصف المذكور.

التعليق

الحكم إذا علق على وصف ازداد بزيادة ذلك الوصف ونقص بنقصه؛ لأن الحكم المعلق على وصف يدل على علِّيَّة ذلك الوصف، والحكم يدور مع علّته وجوداً وعدماً، وقوةً وضعفاً. الحكم إذا علق على وصف، فإنه يقوى بقوة ذلك الوصف ويضعف

بضعفه، فإذا قلت: إن المؤمن له أجر عظيم؛ فكلما قوي الإيمان قوي الأجر، وكلما ضعف ضعف الأجر.

❑ ❑ ❑

وكذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ عام بجنس الإنسان، فكلّ إنسان هذا وصفه، إلا من استثنى الله بقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢] **إلى آخرها.**

كما أن قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١ ـ ٢]، **أي: كل إنسان متصف بالخسار ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾** [العصر: ٣]، **وأمثال ذلك كثير.**

التعليق

هذا الجنس لأن الشيخ ـ رحمه الله ـ ذكر الوصف والجنس، وهذا مثال اسم الجنس.

❑ ❑ ❑

وأعظم ما تعتبر به هذه القاعدة: في الأسماء الحسنى، فإن في القرآن منها شيئاً كثيراً، وهي أجلّ علوم القرآن، فمثلاً يخبر الله عن نفسه أنه الله، وأنه الملك، والعليم، والحكيم، والعزيز، والرحيم، والقدوس السلام، والحميد المجيد، فـ «الله» هو الذي له جميع معاني الأُلوهية التي يستحق أن يؤلّه لأجلها، وهي صفات الكمال كلها، والمحامد كلها، والفضل كله، والإحسان كله، وأنه لا يشارك الله أحد في معنى من معاني الألوهية، لا بشر، ولا ملك؛ بل هم جميعاً متألِّهون متعبِّدون لربّهم خاضعون لجلاله وعظمته.

وأنه الملك الذي له جميع معاني الملك، وهو الْمُلْك الكامل، والتصرف النافذ، وأن الخلق كلهم مماليك لله، عبيد تحت أحكام ملكه القدرية، والشرعية، والجزائية.

وأنه العليم بكل شيء، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء...

التعليق

قول المؤلف ـ رحمه الله ـ: إن الأحكام قدرية وشرعية وجزائية، ونحن نقول دائماً إن الأحكام شرعية وكونية، أو قدرية؛ لأن الجزائية داخلة في القدرية؛ لأنها مما قدره الله على هذا العمل، لكن هذا من باب البسط.

❑ ❑ ❑

...، الذي أحاط علمه بالبواطن، والظواهر، والخفيَّات، والجليَّات، والواجبات، والمستحيلات، والجائزات، والأمور السابقة، واللاحقة، والعالَم العلوي، والسفلي، والكليات، والجزئيات، وما يعلم الخلق، وما لا يعلمون.

التعليق

كيف يعلم الله المستحيلات؟ قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، هذا تعليق بشيء مستحيل، يعني: مستحيل أن يكون فيها آلهة إلا الله. أخبر الله أنه لو كان في هذا الكون آلهة إلا الله لفسدتا، فأخبر عن شيء لا يمكن وجوده.

❑ ❑ ❑

... وأنه الحكيم، الذي له الحكمة التامة الشاملة لجميع ما قضاه، وقدَّره، وخلقه، وجميع ما شرعه، لا يخرج عن حكمته مخلوق، ولا مشروع.

وأنه العزيز، الذي له جميع معاني العزة على وجه الكمال التام من كل وجه: عزّة القوة، وعزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وأن جميع الخلق في غاية الذلّ، ونهاية الفقر، ومنتهى الحاجة والضرورة إلى ربِّهم.

وأنه الرحيم، الذي له جميع معاني الرحمة، الذي وسعت رحمته كل شيء، ولم يخل مخلوق من إحسانه طرفة عين، ووصلت رحمته حيث وصل علمه ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وأنه القدوس، السلام، المعظَّم، المنزَّه عن كل عيب وآفة ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له ندّ من خلقه.

وهكذا بقية الأسماء الحسنى اعتبرها بهذه القاعدة الجليلة ينفتح لك باب عظيم من أبواب معرفة الله، بل أصل معرفة الله تعالى معرفة ما تحتوي عليه أسماؤه الحسنى من المعاني العظيمة، بحسب ما يقدر عليه العبد، وإلا فلا يبلغ علم أحد من الخلق، ولا يحصي أحد ثناء عليه؛ بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]، فالبرّ يشمل جميع أنواع البرّ والخير. وتشمل التقوى: جميع ما يجب اتقاؤه من أنواع المعاصي والمحرَّمات.

والإثم: اسم جامع لكل ما يؤثم ويوقع في المعصية، كما أن

العدوان اسم جامع يدخل فيه التعدي على الناس في الدماء، والأموال، والأعراض.

والمعروف في القرآن: اسم جامع لكل ما عُرف حسنه شرعاً وعقلاً، وعكسه المنكر.

وقد نبَّه النبيّ ﷺ أُمته إلى هذه القاعدة، وأرشدهم إلى اعتبارها في قوله في التشهد في الصلاة في قول المصلِّين: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، فقال: «فإنكم إذا قلتم ذلك سلَّمتم على كل عبدٍ صالح من أهل السماء والأرض»[1]، وأمثلتها في القرآن كثيرة جداً.

التعليق

خلاصة هذه القاعدة: أن المفرد المحلى بأل يعمّ، سواء دخل على وصف أو دخل على اسم جنس. ثم عاد المؤلف ـ رحمه الله ـ واستطرد في أسماء الله تعالى، وأن «أل» فيها للاستغراق؛ فمثلاً: السميع: لاستغراق كل ما يمكن من سمع، ولهذا ما من مسموع إلا ويسمعه الله عز وجل، البصير: لاستغراق كل ما يمكن من بصر، البرّ: لاستغراق كل ما يمكن من الخير والإحسان، وهكذا.

(١) البخاري في الأذان، باب التشهد في الآخرة. حديث رقم (٨٣١) (٢/ ٣١١)، ومسلم في الصلاة، باب التشهد في الصلاة، حديث رقم (٤٠٢) (١/ ٣٠١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

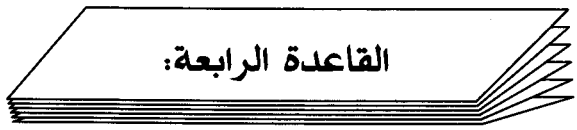

إذا وقعت النكرة في سياق النفي، أو النهي، أو الشرط، أو الاستفهام، دلت على العموم.

كقوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]، **فإنه نهى عن الشرك به في النيات، والأقوال، والأفعال، وعن الشرك الأكبر، والأصغر، والخفيّ، والجلي؛ فلا يجعل العبد لله نداً ومشاركاً في شيء من ذلك.**

ونظيرها: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقوله في وصف يوم القيامة: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [الانفطار: ١٩]، **يعمّ كل نفس، وأنه لا تملك شيئاً من الأشياء، لا إيصال المنافع، ولا دفع المضارّ.**

وكقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس: ١٠٧]، **فكل ضرٍّ قدَّره الله على العبد ليس في استطاعة أحد من الخلق كشفه بوجه من الوجوه، ونهاية ما يقدر عليه المخلوق من الأسباب والأدوية جزء من أجزاء كثيرة داخلة في قضاء الله وقدره.**

وقوله: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [فاطر: ٢]، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾

[النحل: ٥٣]، **يشمل كل خير في العبد ويصيب العبد، وكل نعمة فيها حصول محبوب أو دفع مكروه، فإن الله هو المتفرد بذلك.**

وقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [فاطر: ٣].

وإذا دخلت (مِنْ) صارت نصاً في العموم، كهذه الآية: ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧]، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥] و[هود: ٥٠، ٦١، ٨٤] و[المؤمنون: ٢٣، ٣٢] **ولها أمثلة كثيرة جداً.**

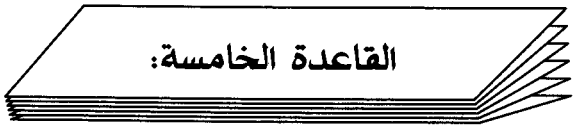

المفرد المضاف يفيد العموم، كما يفيد ذلك اسم الجمع.

فكما أن قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] إلى آخرها، يشمل كل أُمّ انتَسَبْتَ إليها وإن علت، وكل بنت انْتَسَبَتْ إليك وإن نزلت، إلى آخر المذكورات...

التعليق

وفيها أيضاً فائدة ثانية: أن الأُمّ تشمل كل من انتَسَبْتَ إليها، والبنت تشمل كل من انتَسَبَتْ إليك، سواء من قِبل الأب أو الأُم، كذلك خالة الإنسان خالة له ولذريته من بعده إلى يوم القيامة، وعمّة الإنسان عمة له ولذريته إلى يوم القيامة، ولو كان من رضاعة، فعمّتك عمة لك ولأولادك وبناتك وبنات بناتك... إلخ، وكذلك خالتك.

❑ ❑ ❑

...، فكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، فإنها تشمل النِّعم الدينية والدنيوية.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فإنها تعمّ الصلوات كلها، والأنساك كلها، وجميع ما العبد فيه وعليه

في حياته ومماته، الجميع قد أوقعتَه وأخلصتَه لله وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، على أحد القولين: أنه يشمل جميع مقاماته في مشاعر الحجّ، اتخذوه معبداً.

وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، وهذا شامل لكل ما هو عليه من التوحيد، والإخلاص لله تعالى، والقيام بحق العبودية.

وأعمّ من ذلك وأشمل قوله تعالى لما ذكر الأنبياء: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فأمره الله أن يقتدي بجميع ما عليه المرسلون من الهدى، الذي هو العلوم النافعة، والأخلاق الزاكية، والأعمال الصالحة، والهدى المستقيم. وهذه الآية أحد الأدلة على الأصل المعروف: «أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه». وشرع الأنبياء السابقين هو هداهم في أصول الدين وفروعه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهذا يعمُّ جميع ما شرعه لعباده فعلاً، وتركاً، اعتقاداً، وانقياداً. وأضافهُ إلى نفسه في هذه الآية لكونه الذي نصبه لعباده، كما أضافه إلى الذين أنعم عليهم في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، لكونهم هم السالكون له؛ فصراط الذين أنعم الله عليهم من النبيّين، والصدِّيقين، والشهداء، والصالحين: ما اتّصفوا به من العلوم، والأخلاق، والأوصاف، والأعمال.

وكذلك قوله: ﴿... وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] يدخل في ذلك جميع العبادات، الظاهرة والباطنة، العبادات الاعتقادية والعملية.

كما أن وصف الله لرسوله ﷺ بالعبودية المضافة إلى الله: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] **يدلّ على أنه وفّى جميع مقامات العبودية؛ حيث نال أشرف المقامات بتوفيته لجميع مقامات العبوديات.**

وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، **فكلّما كان العبد أقوم بحقوق العبودية كانت كفاية الله له أكمل وأتمّ، وما نقص منها نقص من الكفاية بحسبه.**

وقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] **يشمل جميع أوامره القدرية الكونية، وهذا في القرآن شيء كثير.**

التعليق

المفرد المضاف يفيد العموم، والجمع المضاف أيضاً يفيد العموم، أما الجمع فهو يفيد العموم بصيغته وإضافته، والمفرد يفيد العموم بالإضافة فقط، فلو نظرنا إليه لكونه مفرداً ما دلّ على العموم، لكن بالإضافة يدل عليه.

ولهذا قال العلماء: لو قال: امرأتي طالق، طلقت جميع نسائه ما لم يرد واحدة معينة. ولو قال: داري وقف وله ثلاثة دور صارت جميع الدور وقفاً؛ لأن المفرد المضاف يعمّ، ولو قال: غلامي حرّ، عتق جميع غلمانه، ما لم ينوِ.

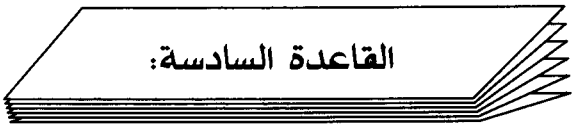

في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضدّه.

يكاد القرآن أن يكون كله لتقرير التوحيد، ونفي ضدّه، وأكثر الآيات يقرر الله فيها توحيد الإلٰهية وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك،...

التعليق

هذا البحث من أهم البحوث؛ لأنه يجب أن يكون الإنسان موحداً في القصد والعمل، في القصد لا يريد بذلك إلا وجه الله، في العمل لا يتبع إلا رسول الله، فلا بدّ من هذين التوحيدين: توحيد القصد وهو الإخلاص، وتوحيد الاتباع أو العمل وهو الاتباع للرسول، فإذا تحقق التوحيدان صحت الأعمال، وإذا اختلّ أحدهما، فإنه يختل من عمله بقدر ما اختل من توحيده.

❑ ❑ ❑

... ويخبر أن جميع الرسل تدعو قومها إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأن الله تعالى إنما خلق الجن والإنس ليعبدوه،...

التعليق

لماذا لم يكن تقرير الأنبياء ودعوتهم إلى توحيد الربوبية؟ لأن أقوامهم كانوا مُقرِّين به لا ينكرونه، ولم ينكر أحد توحيد الربوبية

أبداً إلا مكابرة، ولا هناك أحد يعتقد أن هذا الكون خلق نفسه أبداً، حتى المجوس الوثنية يرون أن للعالم خَالِقَيْن، ومع هذا يرون أن أحد الخَالِقَيْن أكمل من الثاني. نعم يرون أن النور يخلق الخير، والظلمة تخلق الشر، ويقولون: إن النور إلٰه خير نافع، والظلمة إلٰه شرير، ويقول بعضهم أيضاً: إن هذه الظلمة حادثة بعد إذ لم تكن بخلاف النور، وعلى كل حال، ما تجد أحداً من الخلق يقول: إن هذا العالم خُلِق بدون خالق أبداً، إلا مكابر. أما توحيد الأُلوهية، فإنه هو الذي وقع فيه النزاع والجدال بين الرسل وأُممهم مكابرة منهم، ولو رجعت إلى قرارة أنفسهم لكان كما قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

❑ ❑ ❑

... وأن الكتب والرسل اتفقت على هذا الأصل الذي هو أصل الأُصول كلها، وأن مَن لم يدن بهذا الدين ـ الذي هو إخلاص العمل لله ـ فعمله باطل ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿... وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]. **ويدعو العباد إلى ما تقرر في فطرهم وعقولهم من أن المتفرِّد بالخلق والتدبير، والمتفرِّد بالنِّعم الظاهرة والباطنة، هو الذي لا يستحق العبادة إلا هو، وأن سائر الخلق ليس عندهم خلق، ولا نفع، ولا دفع، ولن يغنوا عن أحد من الله شيئاً، ويدعوهم أيضاً إلى هذا الأصل بما يتمدح به ويثني على نفسه الكريمة، من تفرُّده بصفات العظمة، والمجد، والجلال، والكمال، وأن من له هذا الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه مشارك أحق من أخلصت له الأعمال الظاهرة والباطنة، ويقرِّر هذا التوحيد بأنه هو الحاكم وحده، فلا يحكم غيره شرعاً ولا جزاء** ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠].

التعليق

هنا ما قال: ولا قدراً؛ لأنه يتكلم عن تقرير الألوهية، وإلا فلا يحكم غيره؛ لا قدراً ولا شرعاً ولا جزاء، ولا يحكم إلا الله عز وجل.

❑ ❑ ❑

وتارة يقرِّر هذا بذكر محاسن التوحيد، وأنه الدين الوحيد الواجب شرعاً، ونقلاً، وفطرة، على جميع العبيد، ويذكر مساوئ الشرك، وقبحه، واختلال عقول أصحابه بعد اختلال أديانهم، وتقليب أفئدتهم، وكونهم في شك وأمر مريج.

وتارة يدعو إليه بذكر ما رتَّب عليه من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، والحياة الطيبة في الدور الثلاث، وما رتّب على ضدّه من العقوبات العاجلة والآجلة، وكيف كانت عواقبهم أسوأ العواقب وشرها.

وبالجملة، فكلّ خير عاجل وآجل، فإنه من ثمرات التوحيد، وكل شرٍّ عاجل وآجل، فإنه من ثمرات ضدّه، والله أعلم.

التعليق

معنى هذه القاعدة: أن الله تعالى يقرر توحيد الأُلوهية في القرآن إما بكمال صفاته، وإما بتوحيد ربوبيته، ولهذا يستدل الله عز وجل على هؤلاء المنكرين للأُلوهية بالربوبية؛ إذ أنه يلزمهم إذا أقرّوا أن الله وحده هو الربّ الخالق المالك المدبّر لجميع الأمور يلزمهم أن لا يعبدوا إلا إياه وحده لا شريك له؛ ولهذا نقول:

إن العلاقة بين أقسام التوحيد الثلاثة، هي: أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الأُلوهية، وتوحيد الأُلوهية متضمن لتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات من تمام توحيد الربوبية؛ لأنه يتضمن كمال صفات الخالق سبحانه وتعالى.

القاعدة السابعة:

في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد ﷺ.

هذا الأصل الكبير قرَّره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه ﷺ، فأخبر أنه صدَّق المرسلين، ودعا إلى ما دعوا إليه، وأن جميع المحاسن التي في الأنبياء، فهي في محمد ﷺ، وما نُزِّهوا عنه من النواقص والعيوب، فمحمّد أوْلاهم وأحقهم بهذا التنزيه، وأن شريعته مهيمنة على جميع الشرائع، وكتابه مهيمن على كل الكتب، فجميع محاسن الأديان والكتب قد جمعها هذا الكتاب وهذا الدين، وفاق عليها بمحاسن وأوصاف لم توجد في غيره، وقرَّر نبوته بأنه أُمِّي لا يكتب ولا يقرأ، ولا جالس أحداً من أهل العلم بالكتب السابقة؛ بل لم يُفاجَأ الناس حتى جاءهم بهذا الكتاب، الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما أتوا، ولا قدروا، ولا هو في استطاعتهم، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وأنه محال مع هذا أن يكون من تلقاء نفسه، أو متقوِّل، أو متوهِّم فيما جاء به. وأعاد في القرآن وأبدى في هذا النوع، وقرَّر ذلك بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطوَّلة على الوجه الواقع، الذي لا يستريب فيه أحد. ثم يخبر تعالى أنه ليس له طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما أتاه الله من الوحي، كمثل قوله تعالى لما ذكر قصة موسى مطوَّلة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، وكما في

قوله: ﴿... وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]. ولما ذكر قصة يوسف وإخوته مطولة، قال: ﴿... وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

فهذه الأمور والإخبارات المفصَّلة التي يفصِّلها تفصيلاً لم يتمكن أهل الكتاب الذين في وقته ولا مَن بعدهم على تكذيبه فيها ولا معارضته من أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقاً.

وتارة يقرِّر نبوته بكمال حكمة الله وتمام قدرته، وأن تأييده لرسوله، ونصره على أعدائه، وتمكينه في الأرض موافق غاية الموافقة لحكمة الله، وأن من قدح في رسالته فقد قدح في حكمة الله، وفي قدرته.

وكذلك نصره وتأييده الباهر على الأُمم الذين هم أقوى أهل الأرض من آيات رسالته، وأدلة توحيده، كما هو ظاهر للمتأمِّلين.

وتارة يقرّر نبوته ورسالته بما حازه من أوصاف الكمال، وما هو عليه من الأخلاق الجميلة، وأن كل خُلُق عالٍ سام، فلرسول الله ﷺ منه أعلاه وأكمله، فمن عظمت صفاته وفاقت نعوته جميع الخلق التي أعلاها الصدق، أليس هذا أكبر الأدلة على أنه رسول ربّ العالمين، والمصطفى المختار من الخلق أجمعين؟!

وتارة يقرّرها بما هو موجود في كتب الأولين، وبشارات الأنبياء والمرسلين، إما باسمه العلَم، أو بأوصافه الجليلة، وأوصاف أُمّته، وأوصاف دينه.

وتارة يقرِّر رسالته بما أخبر به من الغيوب الماضية، والغيوب

المستقبلة، التي وقعت في زمانه، والتي لا تزال تقع في كل وقت؛ فلولا الوحي ما وصل إليه شيء من هذا، ولا له ولا لغيره طريق إلى العلم به.

وتارة يقرِّرها بحفظه إياه، وعصمته له من الخلق، مع تكالب الأعداء وضغطهم، وجدّهم التام في الإيقاع به بكل ما في وسعهم، والله يعصمه، ويمنعه، وينصره!! وما ذاك إلا لأنه رسوله حقاً، وأمينه على وحيه.

وتارة يقرِّر رسالته بذكر عظمة ما جاء به، وهو القرآن الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وتحدَّى أعداءه ومن كفر به أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة واحدة؛ فعجزوا، ونكصوا، وباؤوا بالخيبة والفشل!! وهذا القرآن أكبر أدلة رسالته، وأجلّها، وأعمّها.

وتارة يقرِّر رسالته بما أظهر على يديه من المعجزات، وما أجرى له من الخوارق والكرامات الدالّة ـ كل واحد بمفرده منها ـ فكيف إذا اجتمعت؟! على أنه رسول الله الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى، إنْ هو إلا وحي يوحى.

وتارة يقرِّرها بعظيم شفقته على الخلق، وحنوِّه الكامل على أُمته، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وأنه لم يوجد، ولن يوجد، أحد من الخلق أعظم شفقة، وبراً، وإحساناً، إلى الخلق منه، وآثار ذلك ظاهرة للناظرين.

فهذه الأمور والطرق قد أكثر الله من ذكرها في كتابه، وقرَّرها بعبارات متنوعة ومعاني مفصَّلة، وأساليب عجيبة، وأمثلتها تفوق العدّ والإحصاء، والله أعلم.

طريقة القرآن في تقرير المعاد.

وهذا الأصل الثالث من الأصول التي اتفقت عليها الرسل والشرائع كلها: التوحيد، والرسالة، وأمر المعاد، وحشر العباد.

وهذا قد أكثر الله من ذكره في كتابه، وقرَّره بطرق متنوعة:

منها: إخباره، وهو أصدق القائلين، ومع إكثار الله من ذكره، فقد أقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه.

ومنها: الإخبار بكمال قدرة الله تعالى، ونفوذ مشيئته، وأنه لا يعجزه شيء؛ فإعادة العباد بعد موتهم فرد من أفراد آثار قدرته.

ومنها: تذكيره العباد بالنشأة الأولى،...

التعليق

المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إنه أقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه، والصحيح أنه أمر نبيّه أن يقسم عليه؛ لأن الإقسام عليه كثير، أكثر من ثلاثة مواضع، لكنه أمر نبيّه أن يقسم في ثلاثة مواضع:

في سورة يونس: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ﴾ [يونس: ٥٣]، وفي سبأ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣]، وفي التغابن: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

❑ ❑ ❑

... وأن الذي أوجدهم ولم يكونوا شيئاً مذكوراً لا بدّ أن يعيدهم كما بدأهم. وأعاد هذا المعنى في مواضع كثيرة، بأساليب متنوعة.

ومنها: إحياؤه الأرض الهامدة الميتة بعد موتها، وأن الذي أحياها سيُحيي الموتى. وقرّر ذلك بقدرته على ما هو أكبر من ذلك، وهو خلق السماوات والأرض، والمخلوقات العظيمة، فمتى أثبت المنكرون لذلك ـ ولن يقدروا على إنكاره ـ فلأي شيء يستبعدون إحياءه الموتى؟

وقرَّر ذلك بسعة علمه، وكمال حكمته، وأنه لا يليق به ولا يحسن أن يترك خلقه سُدى مُهْمَلين، لا يُؤمرون، ولا يُنهون، ولا يُثابون، ولا يعاقبون!! وهذا طريق قرَّر به النبوة وأمر المعاد.

ومما قرَّر به البعث، ومجازاة المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بإساءتهم: ما أخبر به من أيامه في الأُمم الماضين، والقرون الغابرة، وكيف نجّى الانبياء وأتباعهم، وأهلك المكذبين لهم، المنكرين للبعث، ونوَّع عليهم العقوبات، وأحلّ بهم المثُلات، فهذا جزاء معجَّل، ونموذج من جزاء الآخرة أراه الله عباده؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة.

ومن ذلك ما أرى الله عباده من إحيائه الأموات في الدنيا، كما ذكره الله عن صاحب البقرة، والألوف من بني إسرائيل، والذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم الخليل والطيور، وإحياء عيسى ابن مريم للأموات، وغيرهما مما أراه الله عباده في هذه الدار؛ ليعلموا أنه قوي ذو اقتدار، وأن العباد لا بدّ أن يَرِدوا دار

القرار، إما الجنة أو النار. وهذه المعاني أبداها الله وأعادها في مَحالّ كثيرة، والله أعلم.

التعليق

وإنما أبدى الله سبحانه وتعالى وأعاد لسببين:

السبب الأول: قوة المنازع والمكابر والمعاند والمنكر، وكلما قوي الإنكار وكثر المعاند، فإنه لا بد أن يكرر الأمر ردعاً له وإثباتاً للحق.

والثاني: لأهمية الإيمان باليوم الآخر؛ لأن مَنْ لم يؤمن باليوم الآخر لن يعمل، فإن الإنسان إذا كان يقول: ما ثَمَّ بعث ولا جزاء ولا حساب، فهو لن يعمل. ما دام يقول: أنا إن فعلت الخطيئة، أو فعلت حسنة، فهو عليّ سواء، فلن يعمل. فلهذا كان الله عز وجل يُكثر من ذكر البعث بعد الموت، وضرب الأمثال له، والإقسام على ثبوته، وغير ذلك مما أشار إليه الشيخ ـ رحمه الله ـ لهذا السبب.

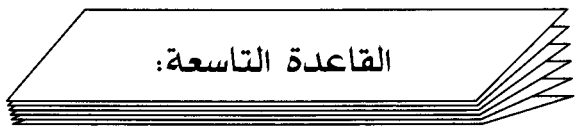

في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية.

قد أمر الله تعالى بالدعاء إلى سبيله بالتي هي أحسن، أي: بأقرب طريق موصل للمقصود، محصل للمطلوب. ولا شكّ أن الطرق التي سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية هي أحسنها وأقربها، فأكثر ما يدعوهم إلى الخير وينهاهم عن الشرّ بالوصف الذي مَنَّ عليهم به، وهو الإيمان؛ فيقول: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا، واتركوا كذا؛ لأنّ في ذلك دعوة لهم من وجهين:

أحدهما: من جهة الحثّ على القيام بلوازم الإيمان، وشروطه، ومكملاته؛ فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا قوموا بما يقتضيه إيمانكم، من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والتخلق بكل خُلق حميد، والتجنّب لكل خُلق رذيل، فإن الإيمان الحقيقي هكذا يقتضي؛ ولهذا أجمع السلف أن الإيمان يزيد وينقص، وأن جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة من الإيمان ولوازمه، كما دلّت على هذا الأصل الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة، وهذا أحدها؛ حيث يصدر الله أمر المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، أو يعلق فعل ذلك على الإيمان، وأنه لا يتمّ الإيمان إلا بذلك المذكور.

والوجه الثاني: أنه يدعوهم بقوله: «يا أيها الذين آمنوا افعلوا

كذا، أو اتركوا كذا». أو يعلق ذلك بالإيمان، يدعوهم بمنَّته عليهم بهذه المنّة التي هي أجلّ المِنن، أي: يا مَنْ منَّ الله عليهم بالإيمان قوموا بشكر هذه النعمة بفعل كذا وترك كذا.

التعليق

يقول ـ رحمه الله ـ: أحدهما: من جهة الحثّ على القيام بلوازم الإيمان وشروطه، والثاني: أن يدعوهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ افعلوا كذا واتركوا كذا، أو يعلق ذلك بالإيمان، يدعوهم بمنّته عليهم بهذه المنّة التي هي أجلّ المنن، ومناداتهم بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لأجل إغرائهم وحثّهم على أن يفعلوا وأن ذلك من مقتضى الإيمان. الثاني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إشعار لهم بمنّة الله عليهم بالإيمان، يعني: هذه النعمة التي أنعمت بها عليكم، وهي الإيمان الذي ناديتكم به.

❑ ❑ ❑

فالوجه الأول: دعوة لهم أن يتمِّموا إيمانهم ويكملوه بالشرائع الظاهرة والباطنة.

والوجه الثاني: دعوة لهم إلى شكر نعمة الإيمان ببيان تفصيل هذا الشكر، وهو الانقياد التامّ لأمره ونهيه.

وتارة يدعو المؤمنين إلى الخير، وينهاهم عن الشر، بذكر آثار الخير، وعواقبه الحميدة، العاجلة والآجلة، وبذكر آثار الشر، وعواقبه الوخيمة، في الدنيا والآخرة.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر نعمه المتنوعة، وآلائه الجزيلة،

وأن النعم تقتضي منهم القيام بشكرها، وشكرها هو القيام بحقوق الإيمان.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بالترغيب والترهيب، وبذكر ما أعدَّ الله للمؤمنين الطائعين من الثواب، وما لغيرهم من العقاب.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر ما له من الأسماء الحسنى، وما له من الحقّ العظيم على عباده، وأن حقّه عليهم أن يقوموا بعبوديته ظاهراً وباطناً، ويتعبّدوا له ويدعوه بأسمائه الحسنى، وصفاته المقدّسة؛ فالعبادات كلها تعظيم وتكبير لله، وإجلال وإكرام، وتودُّد إليه، وتقرُّب منه.

وتارة يدعوهم إلى ذلك لأجل أن يتَّخذوه وحده وليّاً، وملجأً، وملاذاً، ومعاذاً، ومفزعاً إليه في الأمور كلها، وإنابة إليه في كل حال، ويخبرهم أن هذا هو أصل سعادة العبد وصلاحه وفلاحه، وأنه إن لم يدخل في ولاية الله وتولّيه الخاص تولاه عدوه الذي يريد له الشر والشقاء، ويمنّيه ويغرّه حتى يُفوّته المنافع والمصالح، ويوقعه في المهالك، وهذا كله مبسوط في القرآن بعبارات متنوعة.

وتارة يحثُّهم على ذلك، ويحذّرهم من التشبه بأهل الغفلة، والإعراض، والأديان المبدلة؛ لئلا يلحقهم من اللوم ما لحق أولئك الأقوام؛ كقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [يونس: ٩٥]، ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات.

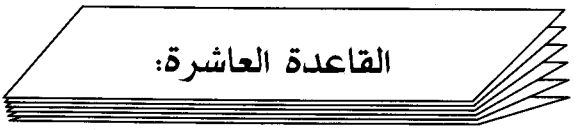

في الطرق التي في القرآن لدعوة الكفار على اختلاف مللهم ونِحلهم.

يدعوهم إلى الدين الإسلامي والإيمان بمحمد ﷺ بما يصفه من محاسن شرعه ودينه، وما يذكره من براهين رسالة محمد ﷺ؛ ليهتدي من قصده الحق والإنصاف، وتقوم الحجة على المعاند. وهذه أعظم طريق يُدعى بها جميع المخالفين لدين الإسلام، فإن محاسن دين الإسلام، ومحاسن النبيّ ﷺ، وآياته، وبراهينه، فيها كفاية تامة للدعوة، بقطع النظر عن إبطال شبههم وما يحتجُّون به، فإن الحق إذا اتضح عُلم أن ما خالفه، فهو باطل ضلال.

ويدعوهم بما يخوِّفهم من أَخَذات الأُمم، وعقوبات الدنيا، وعقوبات الآخرة، وبما في الأديان الباطلة من أنواع الشرور، والعواقب الخبيثة، ويحذّرهم من طاعة رؤساء الشر، ودعاة النار، وأنهم لا بد أن تتقطع نفوسهم على طاعتهم حسرات، وأنهم يتمنون أن لو أطاعوا الرسول ولم يطيعوا السادة والرؤساء، وأن مودتهم وصداقتهم ستتبدَّل بغضاء وعداوة.

ويدعوهم أيضاً بنحو ما يدعو المؤمنين بذكر آلائه ونعمه، وأن المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة هو الذي يجب على العباد طاعته، وامتثال أمره، واجتناب نهيه.

ويدعوهم أيضاً بشرح ما في أديانهم الباطلة، وما احتوت عليه من القبح، والمقارنة بينها وبين دين الإسلام؛ ليتبين ويتضح ما يجب إيثاره وما يتعيَّن اختياره.

ويدعوهم بالتي هي أحسن، فإذا وصلت بهم الحال إلى العناد والمكابرة الظاهرة توعَّدهم بالعقوبات الصوارم، وبيَّن للناس طريقتهم التي كانوا عليها، وأنهم لم يخالفوا الدين جهلاً وضلالاً، أو لقيام شبهة أوجبت لهم التوقف، وإنما ذلك جحود ومكابرة وعناد، ويبين مع ذلك الأسباب التي منعتهم من متابعة الهدى، وأنها رياسات وأغراض نفسية، وأنهم لما آثروا الباطل على الحق طبع على قلوبهم، وخُتِم عليها، وسدّ عليهم طرق الهدى عقوبة لهم على إعراضهم، وتولِّيهم للشيطان، وتخلِّيهم من ولاية الرحمٰن، وأنه ولاهم ما تولوا لأنفسهم، وهذه المعاني الجزيلة مبسوطة في القرآن في مواضع كثيرة، فتأمَّل وتدبّر القرآن تجدها واضحة جلية، والله أعلم.

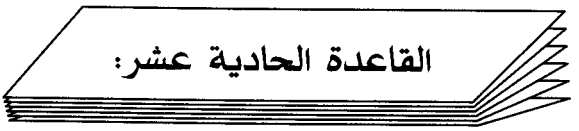

كما أن المفسر للقرآن يراعي ما دلت عليه ألفاظه مطابقة، وما دخل في ضمنها، فعليه أن يراعي لوازم تلك المعاني، وما تستدعيه من المعاني التي لم يصرح اللفظ بذكرها.

التعليق

فتح لنا المؤلف ـ رحمه الله ـ في هذه العبارة أبواب الدلالة، وأنها ثلاثة أقسام: دلالة مطابقة، ودلالة تضمن، ودلالة التزام، فدلالة المطابقة هي: دلالة اللفظ على جميع معناه، ودلالة التضمن: دلالته على جزء من معناه، ودلالة الالتزام: دلالته على لازم معناه، ودلالة اللازم على أمر خارج، مثال ذلك إذا قلت: هذه دار، فدلالة هذه الكلمة على ما في الدار من الغرف والحجر والفسحات والحمامات وما أشبهها دلالة مطابقة، ودلالتها على كل غرفة بمفردها دلالة تضمن، ودلالتها على أن لهذا الدار بانياً دلالة التزام.

هذه أنواع الدلالات الثلاثة، ولا شك أن الله إذا فتح على الإنسان معرفة هذه الدلالات فإنه يحصل علماً كثيراً بأدلة قليلة، ولهذا تجد بعض العلماء يستنبط من الآية أحكاماً كثيرة، وآخرين لا يستنبطون منها إلا بعض هذه الأحكام، كل ذلك بما يفتح الله على الإنسان من الفهم في أنواع الدلالة.

❑ ❑ ❑

وهذه القاعدة من أجلِّ قواعد التفسير وأنفعها، وتستدعي قوة فكر، وحُسن تدبر، وصحة قصد؛ فإن الذي أنزله هو العالم بكل شيء، الذي أحاط علمه بما تحتوي عليه القلوب، وما تَضَمّنه المعاني، وما يتبعها ويتقدمها وتتوقف هي عليه؛ ولهذا أجمع العلماء على الاستدلال باللازم في كلام الله لهذا السبب.

والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دلّ عليه اللفظ من المعاني، فإذا فهمتها فهماً جيداً، ففكِّر في الأمور التي تتوقف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها، وكذلك فكر فيما يترتب عليها، وما يتفرَّع عنها، وينبني عليها، ولا تزال تفكر في هذه الأمور حتى يصير لك ملَكة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة، فإن القرآن حق، ولازم الحقّ حقّ، وما يتوقف على الحق حق، وما يتفرَّع على الحق حق؛ فمن وُفِّق لهذه الطريقة، وأعطاه الله توفيقاً ونوراً، انفتحت له العلوم النافعة، والمعارف الجليلة. ولنمثل لهذا الأصل أمثلة توضحه:

منها: في أسمائه الحسنى «الرحمٰن الرحيم»، فإنها تدل بلفظها على وصفه بالرحمة، وسعة رحمته، فإذا فهمت أن الرحمة التي لا يشبهها رحمة أحد هي وصفه الثابت، وأنه أوصل رحمته إلى كل مخلوق، ولم يَخْلُ أحد من رحمته طرفة عين، عرفت أن هذا الوصف يدل على كمال حياته، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته؛ لتوقُّف الرحمة على ذلك كلّه، ثم استدللت بسعة رحمته على أن شرعه نور ورحمة؛ ولهذا يعلِّل تعالى كثيراً من الأحكام الشرعية برحمته وإحسانه؛ لأنها من مقتضاه وأثره.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨]**، فإذا فهمت أن الله أمر بأداء الأمانات كلها إلى أهلها استدللت بذلك على وجوب حفظ الأمانات، وعدم إضاعتها والتفريط والتعدي فيها، وأنه لا يتم الأداء لأهلها إلا بذلك...**

التعليق

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ هذا أمر بأداء الأمانة يستلزم أن نحفظها؛ لأنه لا يتم الأداء إلا بذلك، ولهذا لو أعطيتني أمانة ووضعتها على العتبة عند الباب، فإني ما أدّيتها طبعاً.

فإن قيل: ما هو الدليل على وجوب حفظ الأمانة في حرز مثلها وعدم التعدي فيها وعدم التفريط؟

قلنا: الدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾؛ لأنه لا يتم الأداء إلا بذلك. وهذه دلالة التزام.

❑ ❑ ❑

... وإذا فهمت أن الله أمر بالحكم بين الناس بالعدل استدللت بذلك على أن كل حاكم بين الناس في الأمور الكبار والصغار لا بدّ أن يكون عالماً بما يحكم به، فإن كان حاكماً عاماً فلا بد أن يحصِّل من العلم ما يؤهله إلى ذلك، وإن كان حاكماً ببعض الأمور الجزئية كالشقاق بين الزوجين؛ حيث أمر الله أن نبعث حكماً من أهله وحكماً من أهلها، فلا بدّ أن يكون عارفاً بهذه الأمور التي يريد أن يحكم بها، ويعرف الطريق التي توصله إليها.

وبهذا بعينه نستدل على وجوب طلب العلم، وأنه فرض عين في كل أمر يحتاجه العبد؛ فإن الله أمرنا بأوامر كثيرة، ونهانا عن أمور كثيرة، ومن المعلوم أن امتثال أمره واجتناب نهيه يتوقف على معرفته وعلمه، فكيف يتصور أن يمتثل الجاهل الأمر الذي لا يعرفه، أو يدع الأمر الذي يعرفه؟

وكذلك أمر لعباده أن يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، يتوقف ذلك على العلم بالمعروف والمنكر ليأمر بهذا، وينهى عن هذا، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يحصل ترك المنهي عنه إلا به فهو واجب؛ فالعلم بالإيمان والعمل الصالح متقدِّم على القيام به، والعلم بضدّ ذلك متقدِّم على تركه؛ لاستحالة ترك ما لا يعرفه العبد قصداً وتقرُّباً وتعبُّداً.

التعليق

كل هذه الأمثلة التزام، إذا أمرنا الله بالصلاة فهو أمر بها وبما لا تتم إلا بها، إذا أمرنا بالزكاة، فهو أمر بها وبما لا تتم إلا بها، فهذا الرجل الذي عنده مال يجب عليه أن يتعلم أحكام الزكاة والذي ما عنده مال لا يجب عليه إلا إذا كان من باب فروض الكفاية، والإنسان الذي يجب عليه الحجّ يجب عليه أن يتعلم أحكام الحج بخلاف الآخر، والآمر بالمعروف الناهي عن المنكر لا يمكن أن يأمر وينهى إلا وهو عالم بالحكم الشرعي، وعالم بالمعروف وعالم بالمنكر، وعلى كل حال ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وهذه القاعدة الفقهية الأصولية هي من هذا الباب دلالتها دلالة التزام، فهو وجوب التزام.

❑ ❑ ❑

ومن ذلك: الأمر بالجهاد، والحثّ عليه، من لازم ذلك: الأمر بكل ما لا يتم الجهاد إلا به، من تعلُّم الرمي، والركوب، وعمل آلاته وصناعاته، مع أن ذلك كله داخل دخول مطابقة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فإنها تتناول كل قوة عقلية، وبدنية، وسياسية، ونحوها.

ومن ذلك: أن الله استشهد بأهل العلم على توحيده، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وهذا يدلّ على عدالتهم، وأنهم حجة من الله تعالى على من كذَّب، بمنزلة آياته وأدلته.

التعليق

وهذا واضح؛ لأن أهل العلم هم الذين تُقبل شهادتهم فيما علموا. أما الجاهل فلا، ولهذا لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علم، فلا يشهد بما ظنّ، إلا أن يشهد به على وجهه، فيقول: هذا الرجل أتى ما تدل القرينة على أنه فعل كذا.

الحاصل أن الشهادة لا بد لها من علم، ولهذا قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، أي: شهدوا. أما الجاهل، فليس عنده من الآيات الدالة على وحدانية الله ما يستطيع أن يشهد بذلك. ولهذا لا يجوز أن تستفتي إلا من تعلم أنه عالم أو يغلب على ظنك أنه عالم، فإذا أتيت بلداً لا تعرف أهلها ولا تعرف من هو العالم فيها ثم رأيت رجلاً يأتيه الناس ويستفتونه وهو يفتيهم، غلب على ظنك أنه عالم؛ فهذه طريقة.

❑ ❑ ❑

ومن ذلك: سؤال عباد الرحمٰن ربّهم أن يجعلهم للمتقين إماماً يقتضي سؤالهم الله جميع ما تتم الإمامة في الدين به، من علوم، ومعارف جليلة، وأعمال صالحة، وأخلاق فاضلة؛ لأن سؤال العبد لربّه شيئاً سؤال له ولما لا يتمّ إلا به، كما إذا سأل الله الجنة واستعاذ به من النار، فإنه يقتضي سؤال كل ما يقرِّب إلى هذه ويبعد من هذه.

التعليق

ومثله أيضاً: لو قال الطالب: اللّهمّ إني أسألك النجاح، يتضمن وسائل المذاكرة والمراجعة.

❑ ❑ ❑

ومن ذلك أنه أمر بالصلاح والإصلاح، وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يصلح عمل المفسدين؛ فيستدلّ بذلك على أن كل أمر فيه صلاح للعباد في أمر دينهم ودنياهم، وكل أمر يعين على ذلك، فإنه داخل في أمر الله وترغيبه، وأن كل فساد وضرر وشرّ، فإنه داخل في نهيه والتحذير عنه، وأنه يجب تحصيل كل ما يعود إلى الصلاح والإصلاح بحسب استطاعة العبد؛ كما قال شعيب ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، **و**﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]، **يقتضي الأمر بكل ما لا تتم البشارة إلا به، والأمر بكل ما فيه حثّ وتحريض، وما يتوقف على ذلك ويتبعه من الاستعداد والتمرّن على أسباب**

الشجاعة والسعي في القوة المعنوية من التآلف، واجتماع الكلمة، ونحو ذلك.

ومن ذلك، الأمر بتبليغ الأحكام الشرعية، والتذكير بها وتعليمها، فإن كل أمر يحصل به التبليغ وإيصال الأحكام إلى المكلَّفين يدخل في ذلك، حتى إنه يدخل فيه إذا ثبتت الأحكام الشرعية، ووُجدت أسبابها، وكانت تخفى عادة على أكثر الناس، كثبوت الأهلَّة ـ بالصيام والفطر والحج وغيره ـ إبلاغها بالأصوات، والرمي، وإبلاغها بما هو أبلغ من ذلك؛ كالبرقيات ونحوها، وكذلك يدخل فيه كلّ ما أعان على إيصال الأصوات إلى السامعين من الآلات الحادثة، فحدوثها لا يقتضي منعها،...

التعليق

شيخنا عبد الرحمٰن ـ رحمه الله ـ دقيق في هذه المسائل، ولا يستوحش من المخترعات العصرية، بينما كان بعض الناس في وقته ينكرون أن تُثبت الأهلة بالإذاعة أو بالبرقيات أو ما أشبه ذلك، ويقول بعضهم إن هذه البرقيات سحر أو شياطين تنقل الصوت، لكن الشيخ ـ رحمه الله ـ ليس على هذا؛ وكان الناس قبل أن تأتي الإذاعة، وقبل أن تأتي المدافع يمشون بالأسواق ويرمون بالبنادق، فهذه وسائل لا يقال عنها بدعة، كما اشتبه على بعض الناس فقالوا: هذه الوسيلة ليست موجودة في عهد الرسول ﷺ وأصحابه؛ وقالوا: وسيلة حفظ العلم بالأشرطة ليست موجودة في عهد الرسول ﷺ وأصحابه، فهي إذن بدعة، وقد قال النبيّ ﷺ:

«كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[(١)]، فتسجيلاتكم وأشرطتها كلها في النار؛ لأنها بدعة! هذا غير صحيح؛ لأن هذه وسيلة، أنا لم أتعبد الله بأني أضعها في المسجل وأجعلها عبادة، إنما هي وسيلة، كالأقلام من عهد الرسول ﷺ؛ فقد كانوا يكتبون بالعيدان والقصب وما أشبهها. أما الآن، فاختلفت الأحوال. وكذلك الورق كان نادراً، فكانوا يكتبون على العظام والحصا واللخاف وما أشبهها.

فالمهم أنه يجب أن نعرف الفرق بين الوسيلة وبين القصد أو الغاية، فوسائل المشروع مشروعة؛ فالبدعة لا تكون إلا فيما قُصد لذاته. أما ما كان وسيلة لغيره، فلا. والوسائل لها أحكام المقاصد، وليس قولنا: إن الوسائل لها أحكام المقاصد مثل قول بعض الناس: إن الغاية تبرر الوسيلة! لأن هذه الأخيرة مقولة خبيثة استخدمها الشيوعيون لأغراضهم ظناً منهم أن غاياتهم حميدة، فهي تتكلم في الحق، لكن قد تؤدي إلى باطل.

أنا ما أستمع للمسجل للتعبد بالاستماع، إنما أستمع للمسجل لضبط القرآن فقط. لو قال أحد: بدل أن نجعل واحداً يقرأ ونستمع، نجعل هذا المسجل يقرأ ونستمع! قد نقول: هذا ليس بمشروع؛ لأن هذا المسجل ما ينال الأجر، وإلا لقلنا إنه يصلح أن نجعله عند الميكروفون ويؤذّن بدل المؤذّن، كما يفعل بعض الناس، وسمعت

---

(١) أخرجه أحمد (٤/١٢٦)؛ وأبو داود في كتاب السنة، باب في لزوم السنة (٤٦٠٧)؛ والترمذي في العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع (٢٦٧٦)؛ وابن ماجه في المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (٤٢)، وغيرهم كثير، من حديث العرباض بن سارية.

أنه في بعض البلاد الإسلامية يجعلون مسجلاً على الساعة، فإذا وصلت الساعة إلى الوقت انفتح المسجل بالأذان وهذا خطأ؛ لأن الأذان عبادة، وهذا المسجل جماد لا يتعبد. لكن الاستماع للتلاوة من المسجل لا شيء فيه؛ لأنه يستمع إليه للتلاوة والضبط فقط، وكما ينظر إليه في ورق المصحف، كذلك يستمع إليه، ويمكن أن يكون له الأجر بما يقوم في قلبه من الخشوع والإنابة وتدبر المعنى كما لو سمع أحداً يتلو.

فالمسجل لا يستمع إليه تعبداً، وما يحصل في قلبه من خشوع وتدبّر يؤجر عليه من هذه الناحية. لكن ليس كما لو قرأ عنده إنسان أو اتفق وإياه على أن يقرأ؛ لأن القارئ له بكل حرف عشر حسنات، والمستمع كذلك.

❑ ❑ ❑

... فكل أمر ينفع الناس، فإن القرآن لا يمنعه، بل يدلّ عليه لمن أحسن الاستدلال به، وهذا من آيات القرآن، وأكبر براهينه، أنه لا يمكن أن يحدث علم صحيح ينقص شيئاً منه، فإنه يَرِدُ بما تشهد به العقول جملة أو تفصيلاً، أو يرد بما لا تهتدي إليه العقول. وأما وروده بما تحيله العقول الصحيحة وتمنعه، فهذا محال، والحس والتجربة شاهدان بذلك؛ فإنه مهما توسّعت الاختراعات، وعظمت الصناعات، وتوسّعت المعارف الطبيعية، وظهر للناس في هذه الأوقات ما كانوا يجهلونه قبل ذلك، فإن القرآن ـ ولله الحمد ـ لا يخبر بإحالته؛ بل تجد بعض الآيات فيها إجمال أو إشارة تدل عليه. وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في غير هذا الموضع، والله أعلم وأحكم، وبالله التوفيق.

التعليق

مثل الكهرباء، فقد تكلم الشيخ عبد الرحمٰن ـ رحمه الله ـ في الكهرباء وآثارها النافعة.

خلاصة هذه القاعدة: أن دلالة القرآن على الأشياء ثلاثة أقسام: المطابقة والتضمن والالتزام، وأنه ينبغي للإنسان أن يعتني بأنواع هذه الدلالات حتى يُفتح له بذلك باب عظيم من العلم، بل أبواب، والناس يختلفون في هذا اختلافاً كثيراً، فتجد بعض الناس إذا تكلم على حديث أو على آية ليستنبط منها الأحكام أتى بفوائد كثيرة، بينما غيره لا يأتي إلا بقليل، والمؤلف ذكر عدة أمثلة في هذا، خصوصاً فيما يتعلق بدلالة الالتزام.

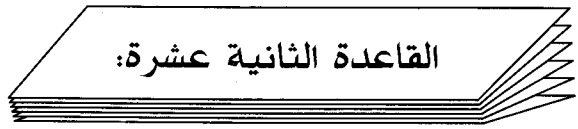

الآيات القرآنية التي ظاهرها التضاد يجب حمل كل نوع منها على حال بحسب ما يليق ويناسب المقام.

وهذا في مواضع متعددة من القرآن:

منها: الإخبار في بعض الآيات أن الكفار لا ينطقون ولا يتكلمون يوم القيامة، وفي بعضها: أنهم ينطقون، ويحاجّون، ويعتذرون، ويعترفون، فحَمْل كلامهم ونطقهم: أنهم في أول الأمر يتكلّمون ويعتذرون، وقد ينكرون ما هم عليه من الكفر، ويُقسمون على ذلك، ثم إذا خُتم على ألسنتهم، وشهدت عليهم جوارحهم بما كانوا يكسبون، ورأوا أن الكذب غير مفيد لهم، أُخرسوا فلم ينطقوا.

وكذلك الإخبار بأن الله تعالى لا يكلمهم ولا ينظر إليهم يوم القيامة، مع أنه أثبت الكلام لهم معه؛ فالنفي واقع على الكلام الذي يسرّهم ويجعل لهم نوع اعتبار، وكذلك النظر، والإثبات واقع على الكلام الواقع بين الله وبينهم على وجه التوبيخ لهم والتقريع؛ فالنفي يدل على أن الله ساخط عليهم، غير راضٍ عنهم، والإثبات يوضح أحوالهم، ويبين للعباد كمال عدل الله بهم؛ إذ وضع العقوبة موضعها.

ونظير ذلك أن في بعض الآيات أخبر أنه: ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمٰن: ٣٩]، وفي بعضها أنه يسألهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢]، و﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]،

ويسألهم عن أعمالهم كلها؛ فالسؤال المنفي: هو سؤال الاستعلام والاستفهام عن الأمور المجهولة، فإنه لا حاجة إلى سؤالهم مع كمال علم الله، واطلاعه على ظاهرهم وباطنهم، وجليل أمورهم ودقيقها. والسؤال المثبت واقع على تقريرهم بأعمالهم، وتوبيخهم، وإظهار أن الله حكم فيهم بعدله وحكمته.

ومن ذلك الإخبار في بعض الآيات أنه لا أنساب بين الناس يوم القيامة، وفي بعضها أثبت لهم ذلك؛ فالمثبت: هو الأمر الواقع والنسب الحاصل بين الناس؛ كقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٥] إلى آخرها. والمنفي: هو الانتفاع بها، فإن كثيراً من الكفار يدَّعون أن أنسابهم تنفعهم يوم القيامة، فأخبر تعالى أنه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

ونظير ذلك: الإخبار في بعض الآيات أن النسب نافع يوم القيامة، كما في إلحاق ذرية المؤمنين لآبائهم في الدرجات، وإن لم يبلغوا منزلتهم، وأن الله يجمع لأهل الجنّات والدرجات العالية من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم؛ فهذا لما اشتركوا في الإيمان وأصل الصلاح زادهم من فضله وكرمه، من غير أن ينقص من أُجور السابقين لهم شيئاً.

التعليق

وبذلك تظهر الحكمة في قوله تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]؛ لأنه قد يقول قائل: هؤلاء يرفعون قليلاً، وهؤلاء ينزلون، فبيّن الله أنه لا ينزل، بل يرفع النازل، ولا ينزل المرتفع.

❑ ❑ ❑

ومن ذلك الشفاعة، فإنه أثبتها في مواضع، ونفاها في مواضع من القرآن، وقيّدها في بعض المواضع بإذنه، ولمن ارتضى من خلقه، فتعيَّن حمل المطلق على المقيد، وأنه حيث نُفيت فهي الشفاعة التي بغير إذنه، ولغير من رضي الله قوله وعمله، وحيث أُثبتت فهي الشفاعة التي بإذنه، لمن رضيه وأذن فيه.

ومن ذلك: أن الله أخبر في آيات كثيرة أنه لا يهدي القوم الكافرين، والفاسقين، والظالمين ونحوها، وفي بعضها: أنه يهديهم ويوفقهم، فتعيَّن حمل المنفيّات على من حقَّت عليه كلمة الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: ٩٦ ـ ٩٧]، وحمل المثبتات على من لم تحق عليهم الكلمة، وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه.

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات أنه العلي الأعلى، وأنه فوق عباده، وعلى عرشه، وفي بعضها: أنه مع العباد أينما كانوا، وأنه مع الصابرين، والصادقين، والمحسنين ونحوهم؛ فَعلُوُّه تعالى أمرٌ ثابت له، وهو من لوازم ذاته، ودُنُوُّه ومعيّته لعباده؛ لأنه أقرب إلى كل أحد من حبل الوريد، فهو على عرشه عَلِيٌّ على خلقه، ومع ذلك فهو معهم في كل أحوالهم، ولا منافاة بين الأمرين؛ لأن الله تعالى ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وما يُتوهم بخلاف ذلك فإنه في حقّ المخلوقين. وأما تخصيص المعية بالمحسنين ونحوهم، فهي معية أخص من المعية العامة، فإنها تتضمن محبتهم، وتوفيقهم، وكلاءتهم، وإعانتهم في كل أحوالهم، فحيث وقعت في سياق المدح والثناء فهي من هذا النوع، وحيث وقعت في سياق التحذير والترغيب والترهيب فهي من النوع الأول.

ومن ذلك: النهي في كثير من الآيات عن موالاة الكافرين، وعن مودّتهم والاتصال بهم، وفي بعضها: الأمر بالإحسان إلى مَن له حق على الإنسان منهم، ومصاحبته بالمعروف؛ كالوالدين ونحوهم، فهذه الآيات العامّات من الطرفين قد وضحها الله غاية التوضيح في قوله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ﴾ الآية [الممتحنة: ٨ ـ ٩]**، فالنهي واقع على التولي والمحبة لأجل الدين، والأمر بالإحسان والبرّ واقع على الإحسان؛ لأجل القرابة، أو لأجل الإنسانية على وجه لا يخلّ بدين الإنسان.**

التعليق

الفرق بين البرّ والإقساط في قول الله: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟﴾ أن البرّ: زيادة في الفضل، والإقساط: العدل؛ فمثلاً: إذا أحسنوا إلينا نُحسن إليهم، وإذا كان لهم حق نحسن إليهم. أما الثاني: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ﴾، ولم يقل: أن تبرّوهم، حتى هؤلاء ربما يكون في الإحسان إليهم خير؛ لكنهم ليسوا كالأوّلين. والموالاة والموادة لجميع الكفار محرمة. وكذلك الفرق الضالة إذا كانت بدعتهم تكفرهم، فلا تجوز موالاتهم.

❑ ❑ ❑

ومن ذلك: أنه أخبر في بعض الآيات أن الله خلق الأرض ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات، وفي بعضها: أنه لما أخبر عن خلق السماوات أخبر أن الأرض بعد ذلك دحاها؛ فهذه الآية تفسّر المراد، وأن خلق الأرض متقدِّم على خلق السماوات، ثم لما خلق الله السماوات بعد ذلك دحى الأرض، فأودع فيها جميع مصالحها المحتاج إليها.

ومن ذلك: تارة يخبر أنه بكل شيء عليم، وتارة يخبر بتعلق علمه ببعض أعمال العباد ببعض أحوالهم، وهذا الأخير فيه زيادة معنى، وهو أنه يدل على المجازاة على ذلك العمل، سواء كان خيراً أو شراً، فيتضمن مع إحاطة علمه: الترغيب والترهيب.

ومن ذلك: الأمر بالجهاد في آيات كثيرة، وفي بعض الآيات الأمر بكفّ الأيدي والإخلاد إلى السكون، فهذه حين كان المسلمون ليس لهم قوة ولا قدرة على الجهاد باليد، والآيات الأُخر حين قووا وصار ذلك عين المصلحة، وهو الطريق إلى قمع الأعداء.

ومن ذلك: أنه تارة يضيف الأشياء إلى أسبابها التي وقعت وتقع بها، وتارة يضيفها إلى عموم قدرته، وأن جميع الأشياء واقعة بإرادته ومشيئته؛ فيفيد مجموع الأمرين: إثبات التوحيد، وتفرد الباري بوقوع الأشياء بقدرته ومشيئته، وإثبات الأسباب والمسببات، والأمر بالمحبوب منها، والنهي عن المكروه، وإباحة مستوي الطرفين؛ فيستفيد المؤمن الجدّ والاجتهاد في عمل الأسباب النافعة، والنظر وملاحظة فضل الله في كل أحواله، وأن لا يتكل على نفسه في أمرٍ من الأمور، بل يتّكل ويستعين بربّه.

وقد يخبر أن ما أصاب العبد من حسنة فمن الله، وما أصابه من سيئة فمن نفسه؛ ليُعرِّف عباده أن الخير والحسنات والمَحابّ تقع بمحض فضله وجوده، وإن جرت ببعض الأسباب الواقعة من العباد، فإن الأسباب هو الذي أنعم بها، وهو الذي يسَّرها، وأن السيئات - وهي المصائب التي تصيب العبد - أسبابها من نفس العبد وبتقصيره في حقوق ربّه، وتعدِّيه لحدوده، فالله وإن كان هو المقدِّر لها، فإنه أجراها على العبد بما كسبت يداه، ولهذا أمثلة يطول عدُّها.

التعليق

جاء في القرآن آيات ظاهرها التعارض، يعني: أن بعضها يعارض بعضاً ظاهراً. ولا يمكن في القرآن ولا في صحيح السنة أن تتعارض النصوص؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فما كان من عند الله، فليس فيه اختلاف. والعلماء رحمهم الله يذهبون إلى الجمع بين هذه النصوص التي ظاهرها التعارض إما بحملها على اختلاف الأحوال، أو اختلاف الأشخاص، أو اختلاف الأسماء، أو اختلاف الأمكنة. فهذه أربعة احتمالات لا تعدوها هذه الأحوال. يعني: يكون هذا الذي ظاهره اختلاف ينزل على حال دون حال، أو في وقت دون وقت، أو في مكان دون مكان، أو في أشخاص دون أشخاص. وقد ألّف الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - كتاباً سماه: «دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب»، جمع فيه الآيات التي قيل إنها متعارضة، أي: ظاهرها التعارض، وجمع بينها. والجمع قد يكون متكلفاً وبعيداً، وقد يكون قريباً حسب ما يوفق الإنسان له. والمهم

أن لدينا قاعدة ثابتة راسخة، وهي أن القرآن لا يمكن أن يتعارض؛ لأن التعارض معناه دفع بعضه ببعض، وهذا لا يمكن؛ لأنه كلام من عند الله عز وجل، والمؤلف ـ رحمه الله ـ ذكر أمثلة كثيرة من هذا النوع، وذكر كيف يجمع بين هذه الآيات التي ظاهرها التعارض.

القاعدة الثالثة عشرة:

طريقة القرآن في الحِجَاج والمجادلة مع أهل الأديان الباطلة.

قد أمر الله بالمجادلة بالتي هي أحسن، ومن تأمّل الطرق التي نصب الله المحاجّة بها مع المبطلين على أيدي رسله رآها مِن أوضح الحجج، وأقواها، وأقومها، وأدلّها على إحقاق الحق، وإزهاق الباطل على وجه لا تشويش فيه، ولا إزعاج؛ فتأمل محاجّة الرسل مع أُممهم، وكيف دعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، من جهة أنه المتفرد بالربوبية، والمتوحِّد بالنّعم، وهو الذي أعطاهم العافية، والأسماع، والأبصار، والعقول، والأرزاق، وسائر أصناف النعم؛ كما أنه المنفرد بدفع النقم، وأن أحداً من الخلق ليس يقدر على نفع ولا دفع، ولا ضرّ ولا نفع؛ فإنه بمجرد معرفة العبد بذلك واعترافه به، لا بدّ أن ينقاد للدين الحق الذي به تتم النعمة، وهو الطريق الوحيد لشكرها، وكثيراً ما يحتج على المشركين به في عبادته بإلزامهم باعترافهم بربوبيته، وأنه الخالق لكل شيء، والرازق لكل شيء؛ فيتعين أنه المعبود وحده، فانظر إلى هذا البرهان كيف ينتقل الذهن منه بأول وهلة إلى وجوب عبادة مَن هذا شأنه، ووجوب الإخلاص له...

التعليق

أظن الانتقال هذا واضح جداً، مثلاً لو أن رجلاً يعبد صنماً، نقول له: هل هذا الصنم أوجدك؟ هل خلقك؟ سيقول: لا. هل هو الذي يرزقك ويعافيك ويدفع عنك النقم؟ سيقول: لا. من الذي يفعل ذلك؟ سيقول: الله. فإذا قال: إن ذلك هو الله، قلنا: إذن يجب عليك أن لا تعبد إلا الله، ما دمت تعترف أن النِّعم التي أمّدك الله بها، والنقم التي دفعها الله عنك قبل أن تصيبك، ورفعها عنك بعد أن أصابتك، ما دمت تعترف أنها من الله، فإن الواجب عليك أن لا تعبد إلا إياه. وأظن هذا واضح جداً. ولهذا يقول الله عز وجل: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩]، يعني: كيف يصرفون عن الحقّ مع وضوحه؟

❑ ❑ ❑

... ويجادل المبطلين أيضاً بذكر عَيْب آلهتهم، وأنها ناقصة من كل وجه، لا تغني عن أهلها شيئاً...

التعليق

هذا أيضاً من وجوه الإلزام بعبادته وحده أن يقال: هذه الآلهة التي تعبد هل هي تنفعك؟ ما هو الجواب: لا، بل هي بنفسها ناقصة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣] نقص في القدرة، وزيادة على ذلك نقص في الضعف؛ ما يستطيعون، ولا يدافعون عن أنفسهم، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه. مع أن الذباب من أهون الحشرات وأحقرها، ومع ذلك إذا سلب هذه الأصنام شيئاً

وأخذه منها ما استنقذوه منه! وهذا مثل عظيم إذا تأملته عرفت أن جميع ما يعبد من دون الله لا يستحق أن يكون رباً ولا معبوداً.

❑ ❑ ❑

... ويقيم الأدلة على أهل الكتاب بأنهم لهم من سوابق المخالفات لرسلهم ما لا يُستغرب معه مخالفتهم لمحمّد ﷺ، وينقض عليهم دعاويهم الباطلة، وتزكيتهم لأنفسهم، ببيان ما يضادّ ذلك من أحوالهم، وأوصافهم، ويجادلهم بتوضيح الحق وبيان براهينه، وأن صدقه وحقّيته تدفع بمجردها جميع الشبه المعارضة له ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢].

وهذا الأصل في القرآن كثير، فإنه يفيد في الدعوة للحق، وردّ كل ما ينافيه. ويجادلهم بوجوب تنزيل الأُمور منازلها، وأنه لا يليق أن يجعل للمخلوق العبد الفقير العاجز من كل وجه بعض حقوق الربّ الخالق الغني الكامل من جميع الوجوه. ويتحدّاهم أن يأتوا بكتاب أو شريعة أهدى وأحسن من هذه الشريعة، وأن يعارضوا القرآن فيأتوا بمثله إن كانوا صادقين، ويأمر نبيّه بمباهلة من ظهرت مكابرته وعناده، فينكصون عنها؛ لعلمهم أنه رسول الله الصادق الذي لا ينطق عن الهوى، وأنهم لو باهَلوه لهلكوا.

وفي الجملة، لا تجد طريقاً نافعاً فيه إحقاق الحق، وإبطال الباطل؛ إلا وقد احتوى عليه القرآن على أكمل الوجوه.

التعليق

المباهلة هي مأخوذة من الابتهال إلى الله جل وعلا، وهي المبالغة في الدعاء وصورتها أن يأتي المتخاصمان ويقول بعضهم

لبعض لنتباهل، ونقول: اللّهمّ مَن كان منا كاذباً فعليه لعنة الله، وما أشبه ذلك مما يدعون به على الكاذب. وقد أشار الله إليها في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، والآية الثانية كقوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

والخلاصة أن هذه القاعدة في بيان مجادلة القرآن ومحاجته للمخالفين، وأنها من أبين المجادلات وأوضحها وأقومها حجة. ومن طريقة القرآن في المجادلة أنه يعدل إلى الطريق الذي لا نزاع فيه عن الطريق الذي فيه نزاع، حتى وإن أمكن إقناع الخصم بما فيه من نزاع، فإنه يدعه ويأتي بالطريق الواضح. مثاله: محاجة إبراهيم للذي حاجّه في ربِّه ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، يعني: فأنا مثل ربك. كيف يحيي ويميت؟ هذا الرجل الظالم يقول: إنه يؤتى إليه بالرجل مستحقاً للقتل فيعفو عنه، وهذا على زعمه إحياء، ويؤتى إليه بالرجل غير جانٍ على نفسه ولا غيره ولا يستحق القتل فيقتله، وهذا على زعمه إماتة. إبراهيم عليه السلام لم يذهب ليحاجّ في هذه النقطة، ولو حاجّه إبراهيم لغلبه بلا شك؛ لأن هذا ليس إحياء ولا إماتة. غاية ما هنالك في المسألة الأولى أن الذي يستحق القتل رفع عنه القتل، والذي أبقى الحياة فيه هو الله، ولو شاء الله لمات. وفي الثانية أيضاً غاية ما فيه أنه فعل سبباً يقتضي أن يموت هذا الرجل فقتل، ولكن

الذي أماته هو الذي أحياه؛ فبإمكان إبراهيم أن يجادل على هذه النقطة، ولكنه عدل إلى أمر يفحمه ولا يستطيع التخلص منه، فقال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فهنا ينبغي عند المحاجّة خصوصاً إذا عرفت أن الذي يحاجك لا يريد إلا أن ينصر قوله، ينبغي أن تعدل عن الطريق الذي يحتاج إلى جدل إلى طريق واضح لا يحتاج إلى جدل، ما دام المقصود الوصول إلى إفحام الخصم، فإذا أراد أن يسدّ علينا طريقاً بإمكاننا أن نفتحه، فلنرجع إلى طريق آخر لا يستطيع أن يسدّه.

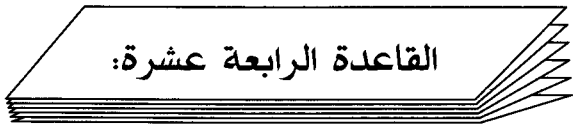

حذف المُتَعَلَّق ـ المعمول فيه ـ يفيد تعميم المعنى المناسب له.

وهذه قاعدة مفيدة جداً، متى اعتبرها الإنسان في الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة، وذلك أن الفعل، أو ما هو في معناه، متى قُيِّدَ بشيء تقيَّد به، فإذا أطلقه الله تعالى، وحذف المُتَعَلَّق فعمّم ذلك المعنى، ويكون الحذف هنا أحسن وأفيد كثيراً من التصريح بالمُتَعَلَّقات، وأجمع للمعاني النافعة، ولذلك أمثلة كثيرة جداً:

منها: أنه قال في عدة آيات: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]؛ فيدلّ ذلك على أن المراد: لعلكم تعقلون عن الله كل ما أرشدكم إليه، وكل ما علَّمكموه، وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة، لعلكم تذكرون جميع مصالحكم الدينية والدنيوية، لعلكم تتقون جميع ما يجب اتقاؤه من جميع الذنوب والمعاصي.

ويدخل في ذلك ما كان السياق فيه، وهو فرد من أفراد هذا المعنى العام؛ ولهذا كان قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] يفيد كل ما قيل في حكمة الصيام، أي: لعلكم تتقون المحارم عموماً، ولعلكم تتقون ما حرّم على الصائمين من المفطرات

والممنوعات، ولعلكم تتصفون بصفة التقوى وتتخلَّقون بأخلاقها، وهكذا سائر ما ذكر فيه هذا اللفظ، مثل قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، أي: المتقين لكل ما يُتَّقى من الكفر والفسوق والعصيان، أي: المؤدّين للفرائض والنوافل التي هي خصال التقوى، وكذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، أي: إن الذين كانت التقوى وصفهم، وترك المحارم شعارهم، متى زيّن لهم الشيطان بعض الذنوب تذكّروا كل أمر يوجب لهم المبادرة إلى المتاب؛ كعظمة الله، وما يقتضيه الإيمان، وما توجبه التقوى، وتذكّروا عقابه ونكاله، وتذكروا ما تُحدثه الذنوب من العيوب والنقائص، وما تسلبه من الكمالات، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ من أين أُتوا، ومبصرون الوجه الذي فيه التخلص من هذا الذنب الذي وقعوا فيه، فبادروا في التوبة النصوح، فعادوا إلى مرتبتهم، وعاد الشيطان خاسئاً مدحوراً.

وكذلك ما ذكره على وجه الإطلاق على المؤمنين، وبلفظ «المؤمنين» أو بلفظ: «إن الذين آمنوا» ونحوها، فإنه يدخل فيه جميع ما يجب الإيمان به من الأصول والعقائد، مع أنه قيّد ذلك في بعض الآيات، مثل قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٣٦] ونحوها.

وكذلك ما أمر به من الصلاح والإصلاح، وما نهى عنه من الفساد والإفساد مطلقاً، يدخل فيه كل صلاح، كما يدخل في النهي كل فساد.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ [يونس: ٢٦]، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ

﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمٰن: ٦٠] **يدخل في ذلك كله: الإحسان في عبادة الخالق بأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والإحسان إلى المخلوقين بجميع وجوه الإحسان؛ من قولٍ، وفعل، وجاه، وعلم، ومال، وغيرها.**

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، **فحذف المُتَكَاثَر به ليعمَّ جميع ما يقصد الناس فيه المكاثرة من الرياسات، والأموال، والجاه، والضيعات، والأولاد، وغيرها مما تتعلق به أغراض النفوس، ويلهيها عن طاعة الله.**

وكذلك قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١ ـ ٢]، **أي: في خسارة من جميع الوجوه، إلا من اتّصف بالإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق والصبر.**

التعليق

ولهذا قال: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾، فجعل الخسر ظرفاً له فيه. والظرف محيط بالمظروف، يعني: أن الإنسان منغمس في الخسر، والخسر محيط به من كل جانب، إلّا من اتّصف بهذه الصفات الأربع ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

❑ ❑ ❑

وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، **فذكر المسؤولين، وأطلق المسؤول عنه؛ ليعمّ كل ما يحتاجه العبد ولا يعلمه.**

وكذلك أمره تعالى بالصبر، ومحبة الصابرين، وثناؤه عليهم،

وبيان كثرة أجرهم؛ من غير أن يقيد ذلك بنوع، ليشمل أنواع الصبر الثلاثة، وهي: الصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة. ومقابل ذلك: ذمُّه للكافرين، والظالمين، والفاسقين، والمشركين، والمنافقين، والمعتدين، ونحوهم؛ من غير أن يقيده بشيء، ليشمل جميع ذلك المعنى.

ومن هذا قوله: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]، ليشمل كل حصر.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: ٢٣٩]، ليعمّ كل خوف.

وقد يقيد ذلك ببعض الأمور، فيتقيد به ما سيق الكلام لأجله، وهذا شيء كثير لو ذهبنا نذكر الأمثلة لطالت، ولكن قد فتح لك الباب فامشِ على هذا السبيل المفضي إلى رياض بهيجة من أصناف العلوم.

التعليق

ويلتحق بهذه القاعدة: أن الحكم المعلّق بوصف يدل على عليّة ذلك الوصف فيه؛ فمثلاً إذا قلت: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحجر: ٤٥]، أي: لتقواهم؛ فالحكم المعلَّق بوصف يدل على علية ذلك الوصف لهذا الحكم، ويدل أيضاً على أنه يعمّ بعموم هذا الوصف، وأنه يقوى كلما قوي ذلك الوصف ويضعف كلما ضعف.

وقد أشار المؤلف إلى أن الأمثلة كثيرة، فمنها: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨]، لم يقل: ألم يجدك يتيماً فآواك، وضالاً

فهداك، وعائلاً فأغناك؛ لأن الذي حصل من هذا حصل له ولغيره، فإن الله تعالى آواه وآوى به أيضاً، فهو فئة كل مؤمن وملجأ كل مؤمن فيما يقدر عليه. ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ هداه وهدى به. ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ أغناه وأغنى به. ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام للأنصار: «**ألم أجدكم ضُلّالاً فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، ومتفرقين فألّفكم الله بي**»[1]. هذه فائدة، لو قال: ألم يجدك يتيماً فآواك، ووجدك ضالاً فهداك، ووجدك عائلاً فأغناك؛ صار مخصصاً، فلما حذف المتعلق صار عاماً.

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الطائف (٤٠٧٥)؛ ومسلم في كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (١٠٦١).

القاعدة الخامسة عشرة:

جعل الله الأسباب للمطالب العالية مبشِّرات لتطمين القلوب وزيادة الإيمان.

وهذا في عدة مواضع من كتابه، فمن ذلك:

النصر، قال في إنزال الملائكة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠].

وقال في أسباب الرزق ونزول المطر: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الروم: ٤٦].

وأعمُّ من ذلك كله قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤]، **وهي كل دليل وعلامة تدلهم على أن الله قد أراد بهم الخير، وأنهم من أوليائه وصفوته، فيدخل فيه الثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، ويدخل فيه ما يشاهدونه من اللطف، والتوفيق، والتيسير لليسرى، وتجنيبهم العُسرى.**

ومن ذلك، بل ألطف: أن يجعل الشَّدّات مبشِّرة بالفرج،...

التعليق

لأن الله يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٧]، ويقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾

[الطلاق: ٤]، فإذا رأيت الأمور متيسرة لك متسهلة، وأن الله يقدم لك الخير حتى وإن كنت لا تحتسبه، فهذه لا شك أنها بشرى. وإذا رأيت الأمر بالعكس فصحح مسارك، فإن فيك بلاء. أما الاستدراج، فيقع إذا كنت مقيماً على معصيته، والنعم ما تكون استدراجاً إلا لمن أقام على معصية الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢]. أما إذا كانت للمؤمن فليست استدراجاً.

❑ ❑ ❑

... والعُسر مؤذناً باليُسر، وإذا تأملت ما قصَّه عن أنبيائه وأصفيائه، وكيف لما اشتدت بهم الحال، وضاقت بهم الأرض بما رحبت ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، رأيت من ذلك العجب العُجاب. وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]، ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، وقال ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»[1] وأمثلة ذلك كثيرة، والله أعلم.

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧)، وعبد بن حميد (المنتخب ١/ ٥٤٦ ـ ٥٤٧)؛ وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٣٧ ـ ١٣٩) وصححه الألباني، والبيهقي في الشعب (١٠٤٣)؛ وفي الأسماء والصفات ص٩٧، وفي الاعتقاد ص٥٨ ـ ٥٩، والطبراني في الكبير (١١٢٤٣)؛ والحاكم (٣/ ٥٤١ ـ ٥٤٢)؛ وابن عدي في الكامل (٧/ ٢٥٢٤ ـ ٢٥٢٥)؛ والعقيلي في الضعفاء (٣/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨)؛ وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٤)؛ واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢/ ٦١٤)، وذكره الهيثمي في المجمع (٧/ ١٨٩ ـ ١٩٠). وهو قطعة من الحديث المشهور في وصية النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما (كما في بعض روايات الحديث).

القاعدة السادسة عشرة:

حذف جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر وشدته في مقامات الوعيد.

وذلك كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: ٥١]، ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٣٠]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧]، **فحَذْف الجواب في هذه الآيات وشبهها أولى من ذكره؛ ليدل على عظمة ذلك المقام، وأنه لهوله، وشدته، وفظاعته، لا يعبّر عنه، ولا يُدرَك بالوصف. ومثل قوله تعالى:** ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر: ٥]، **أي: لَمَا أقمتم على ما أنتم عليه من التفريط، والغفلة، واللّهو.**

التعليق

هذا واضح؛ حذف الشيء في مقام التعظيم يدل على شدّته وهوله، وكذلك إبهامه وإجماله، مثل قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، فإن هذا يدل على أنه غشيهم أمر عظيم، وإلا لقال قائل: هذا تحصيل حاصل، غشيهم ما غشيهم، لكن هذا من باب التعظيم وتفخيم الشيء، كذلك هذه الآيات التي فيها ذكر الشرط وحذف الجواب كلّها تدل على عظمة هذا الجواب.

القاعدة السابعة عشرة:

بعض الأسماء الواردة في القرآن الكريم إذا أُفرد دلَّ على المعنى العام المناسب له، وإذا قُرن مع غيره دلَّ على بعض المعنى، ودلّ ما قُرن معه على باقيه.

التعليق

يقال: «إذا أفردت عمَّت، وإذا قُرن معها غيرها خصّت»، ويقال: «إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا».

❑ ❑ ❑

ولهذه القاعدة أمثلة كثيرة:

منها: «الإيمان» أُفرد وحده في آيات كثيرة، وقُرن مع العمل الصالح في آيات كثيرة، فالآيات التي أُفرد فيها يدخل فيه جميع عقائد الدين، وشرائعه الظاهرة والباطنة؛ ولهذا يرتّب الله عليه حصول الثواب، والنجاة من العقاب، ولولا دخول المذكورات ما حصلت آثاره، وهو عند السلف: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح. والآيات التي قُرن الإيمان فيها للعمل الصالح؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، يُفسَّر الإيمان فيها: بما في القلوب من المعارف، والتصديق، والاعتقاد، والإنابة. والعمل الصالح: بجميع الشرائع القولية والفعلية.

وكذلك لفظ «البرّ» و«التقوى»، فحيث أُفرد البرّ دخل فيه امتثال

الأوامر واجتناب النواهي، وكذلك إذا أُفردت التقوى؛ ولهذا يرتب الله على البرّ والتقوى عند الإطلاق الثواب المطلق، والنجاة المطلقة، كما يرتبه على الإيمان. وتارة يفسر أعمال البر بما يتناول أفعال الخير، وترك المعاصي. وكذلك في بعض الآيات تفسير خصال التقوى، كما في قوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤]، إلى آخر ما ذكره من الأوصاف التي تتمّ بها التقوى. وإذا جمع بين البرّ والتقوى، مثل قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٢]، كان البرّ اسماً جامعاً لكل ما يحبه الله ويرضاه؛ من الأقوال، والأفعال، الظاهرة والباطنة. وكانت التقوى اسماً جامعاً يتناول ترك جميع المحرّمات.

وكذلك لفظ «الإثم» و«العدوان» إذا قُرنت فُسِّر الإثم: بالمعاصي التي بين العبد وبين ربّه. والعدوان: بالتجرؤ على الناس في دمائهم، وأموالهم، وأعراضهم. وإذا أُفرد الإثم دخل فيه كل المعاصي التي تُؤثِّم صاحبها؛ سواء كانت بينه وبين ربّه، أو بينه وبين الخلق. وكذلك إذا أُفرد العدوان.

وكذلك لفظ «العبادة» و«التوكل» ولفظ «العبادة» و«الاستعانة» إذا أُفردت العبادة في القرآن تناولت جميع ما يحبه الله ويرضاه ظاهراً وباطناً، ومن أول ما يدخل فيها: التوكل، والاستعانة، وإذا جُمع بينها وبين التوكل والاستعانة، نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، فُسرت العبادة بجميع المأمورات الباطنة والظاهرة، وفُسِّر التوكل باعتماد القلب

على الله في حصولها، وحصول جميع المنافع، ودفع المضار، مع الثقة التامة بالله في حصولها.

وكذلك «الفقير» و«المسكين» إذا أُفرد أحدهما دخل فيه الآخر، كما في أكثر الآيات، وإذا جُمع بينهما؛ كما في آية الصدقات: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، فُسِّر الفقير بمن اشتدّت حاجته، وكان لا يجد شيئاً، أو يجد شيئاً لا يقع منه موقعاً. وفُسِّر المسكين بمن حاجته دون ذلك.

ومثل ذلك الألفاظ الدالّة على تلاوة الكتاب، والتمسُّك به؛ وهو: اتباعه، يشمل ذلك: القيام بالدِّين كله، فإذا قُرنت معه الصلاة كما في قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، كان ذكر الصلاة تعظيماً لها، وتأكيداً لشأنها، وحثاً عليها؛ وإلا فهي داخلة بالاسم العام، وهو التلاوة، والتمسك به، وما أشبه ذلك من الأسماء.

القاعدة الثامنة عشرة:

في كثير من الآيات يخبر بأنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء. وفي بعضها يذكر مع ذلك الأسباب المتعلقة بالعبد، الموجبة للهداية، أو الموجبة للإضلال، وكذلك حصول المغفرة وضدها، وبسط الرزق وتقديره.

وذلك في آيات كثيرة، فحيث أخبر أنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، ويغفر لمن يشاء، ويعذِّب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء، ويقتره على من يشاء؛ دلّ ذلك على كمال توحيده، وانفراده بخلق الأشياء، وتدبير جميع الأمور، وأن خزائن الأشياء بيده؛ يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، فيقتضي مع ذلك من العباد أن يعترفوا بذلك، وأن يعلِّقوا أملهم ورجائهم به في حصول ما يحبّون منها، وفي دفع ما يكرهون، وأن لا يسألوا أحداً غيره؛ كما في الحديث القدسي: «يا عبادي كلكم ضالّ إلا مَن هديته، فاستهدوني أهدكم»[1] إلى آخره.

وفي بعض الآيات يذكر فيها أسباب ذلك؛ ليعرف العباد الأسباب والطرق المفضية إليها، فيسلكوا النافع، ويدعوا الضارّ؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠]، فبيَّن أن أسباب الهداية والتيسير: تصديق العبد لربّه، وانقياده

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة، باب تحريم الظلم. حديث رقم (٢٥٧٧) (٤/ ١٩٩٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

لأمره، وأن أسباب الضلال والتعسير ضدّ ذلك. وكذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [المائدة: ١٦]، ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠]، فأخبر أن الله يهدي من كان قصده حسناً، ومن رغب في الخير واتّبع رضوان الله، وأنه يُضلّ من فسق عن طاعة الله تعالى، وتولى أعداءه الشياطين، ورضي بولايتهم عن ولاية رب العالمين؛ وكذلك قوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وكذلك يذكر في بعض الآيات الأسباب التي تُنال بها المغفرة والرحمة، ويُستحق بها العذاب؛ كقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، ﴿... وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧]، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. ثم ذكر الأسباب التي تُنال بها المغفرة والرحمة، وهي خصال التقوى المذكورة في هذه الآية وغيرها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]...

التعليق

هذه الآية عظيمة؛ لو قال لنا قائل: أنا أرجو رحمة الله، وأخاف عذاب الله! ننظر هل هو من هؤلاء المتصفين بهذه الصفات؛ إن كان كذلك، فهو صادق، وإن كان غير ذلك، فإنه ممن تمنى على الله الأماني؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾. أما أن يقول: أنا أرجو رحمة الله، وهو لا يصلي! ـ مثلاً ـ فهذا غير مقبول؛ فالذي يرجو رحمة الله حقيقة لا بدّ أن يسعى لها.

❑ ❑ ❑

... وأعمُّ من ذلك كله قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]**، فطريق الرحمة والمغفرة سلوك طاعة الله ورسوله عموماً، وهذه الأسباب المذكورة خصوصاً.**

وأخبر أن العذاب له أسباب متعددة، وكلها راجعة إلى شيئين: التكذيب لله ورسوله، والتولي عن طاعة الله ورسوله؛ كقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٥ ـ ١٨]**، ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾** [طه: ٤٨].

وكذلك يذكر أسباب الرزق، وأنه لزوم طاعة الله ورسوله، والسعي الجميل مع لزوم التقوى؛ كقوله تعالى: ﴿... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]**. وانتظار الفرج والرزق؛ كقوله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾** [الطلاق: ٧]**، وكثرة الذكر والاستغفار: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا**

حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣]، ﴿... ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نـــــوح: ١٠ ـ ١١]، **فأخبر أن الاستغفار سبب يُستجلَبُ به مغفرة الله، ورزقه، وخيره؛ وضدّ ذلك سبب للفقر والتيسير للعسرى. وأمثلة هذه القاعدة كثيرة، قد عرفت طريقها فالزمه.**

القاعدة التاسعة عشرة:

خَتْم الآيات بأسماء الله الحسنى يدل على أن الحكم المذكور له تعلق بذلك الاسم الكريم.

وهذه قاعدة لطيفة نافعة، عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها تجدها في غاية المناسبة، وتدلّك على أن الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته، ومرتبط بها.

وهذا باب عظيم من معرفة الله، ومعرفة أحكامه، من أجَلِّ المعارف وأشرف العلوم، تجد آية الرحمة مختومة بأسماء الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة، والقدرة، والحكمة، والعلم، والقهر. ولا بأس هنا أن نتتبّع الآيات الكريمة في هذا، ونشير إلى مناسبتها بحسب ما وصل إليه علمنا القاصر، وعبارتنا الضعيفة، ولو طالت الأمثلة هنا؛ لأنها من أهم المهمات، ولا تكاد تجدها في كتب التفسير إلا يسيراً منها؛ فقوله تعالى في قوله: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، ذِكْرُ إحاطة علمه بعد ذِكر خلقه للأرض والسمٰوات يدل على إحاطة علمه بما فيهما من العوالم العظيمة، وأنه حكيم حيث وضعها لعباده، وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام، وأن خلقه لها من أدلة علمه؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك ١٤]، فخلقه للمخلوقات من أكبر الأدلة العقلية على علمه، فكيف يخلقها وهو لا يعلمها؟

ولما ذكر كلام الملائكة حين أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة، ومراجعتهم لربّهم في ذلك، فلما خلق آدم، وعلَّمه أسماء كل شيء، وعجزت الملائكة عنها، وأنبأهم آدم بها: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، فاعترفوا لله تعالى بسِعَة العلم، وكمال الحكمة، وأنهم مخطئون في مراجعتهم في استخلافه في الأرض. وفي هذا أن الملائكة على عظمتهم، وسعة معارفهم بربّهم، اعترفوا بأن علومهم تضمحل عند علم ربهم، وأنه لا علم لهم إلا منه، فخَتْم هذه الآيات بهذين الاسمين الكريمين ـ الدالين على علم الله بآدم، وتمام حكمته في خلقه، وما يترتب على ذلك من المصالح المتنوعة ـ من أحسن المناسبات.

وأما قوله عن آدم: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، وخَتْمُه كثيراً من الآيات بهذين الاسمين بعد ذكر رحمته، ومغفرته، وتوفيقه، وحلمه؛ فمناسبته لكل أحد، وأنه لما كان هو التوّاب الرحيم أقبل بقلوب التائبين إليه، ووفَّقهم لفعل الأسباب التي يتوب عليهم ويرحمهم بها، ثم غفر لهم ورحمهم فتاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة والأسباب، وتاب عليهم ثانياً حين قبل مَتابَهُم، وأجاب سؤالهم؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨]، أي: أقبل بقلوبهم، فإنه لولا توفيقه وصَرْف قلوبهم إلى ذلك لم يكن لهم سبيل إلى ذلك حين استولت عليهم النفس الأمّارة؛ فإنها لا تأمر إلا بالسوء إلا من رحم الله، فأعاذه منها ومن نزغات الشيطان.

ولما ذكر الله النسخ أخبر عن كمال قدرته وتفرّده بالملك، فقال:

﴿... أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٦ ـ ١٠٧]، **وفي هذا ردّ على مَن أنكر النسخ ـ كاليهود ـ، وأن نسخه لما ينسخه من آثار قدرته وتمام ملكه، فإنه تعالى يتصرّف في عباده، ويحكم بينهم في أحكامه القدرية وأحكامه الشرعية، فلا حَجْر عليه في شيء من ذلك.**

ولـمّا قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥]، **أي: واسع الفضل، واسع الملك، جميع العالم العلوي والسفلي داخل في ملكه، ومع سعته في ملكه وفضله فهو محيط علمه بذلك كله، ومحيط علمه في الأمور الماضية والمستقبلة، ومحيط علمه بما في التوجه إلى القِبل المتنوعة من الحكمة، ومحيط علمه بنيّات المستقبلين لجهة من الجهات إذا أخطؤوا القبلة المعينة، فحيث تيمّم المصلي تيمّم إلى وجه ربِّه.**

التعليق

المعنى: أن الناس كانوا أول ما قدم النبيّ ﷺ إلى المدينة يصلّون إلى بيت المقدس، فهو قبلة. ثم نسخ إلى بيت الله الحرام، فصار قبلة. فإذن، الحكمة في كون الله عز وجل أقرّهم أو أذن لهم أو شرع لهم أن يصلّوا إلى بيت المقدس أول ما قدم الرسول ﷺ إلى المدينة، ثم نسخ ذلك.

❑ ❑ ❑

وأما قول الخليل وإسماعيل عليهما السلام، وهما يرفعان القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، **فإنه توسل إلى الله بهذين الاسمين إلى قبول هذا العمل الجليل؛ حيث**

كان الله يعلم نياتهما ومقاصدهما، ويسمع كلامهما، ويجيب دعاءهما؛ فإنه يُراد بالسميع في مقام الدعاء ـ دعاء العبادة، ودعاء المسألة ـ معنى المستجيب؛ كما قال الخليل في الآية الاخرى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

التعليق

هذه فائدة: إذا جاء اسم الله السميع في مقام الدعاء، سواء دعاء المسألة أو دعاء العبادة، فهو بمعنى الإجابة أو الاستجابة، ومنه في دعاء العبادة «سمع الله لمن حمده»، فإن الحامد يدعو الله سبحانه وتعالى بعبادته، فمعنى: سمع الله لمن حمده، أي: استجاب. وأما قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾، فهذا دعاء مسألة، فمعنى: سميع، أي: مجيب الدعاء.

وأما نحو قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١]، فهو سمع بمعنى إدراك المسموع.

❑ ❑ ❑

وأما خَتْم قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، **بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾** [البقرة: ١٢٩]، **أي: فكما أن بعثتك لهذا الرسول فيه الرحمة السابغة، ففيه تمام عزة الله، وكمال حكمته، فإنه ليس من حكمته أن يترك الخلق سدى ـ عبثاً ـ لا يرسل إليهم رسولاً، فحقّق الله حكمته ببعثته لئلا يكون للناس على الله حجة. والأمور كلها ـ قدريُّها وشرعيُّها ـ لا تقوم إلا بعزة الله ونفوذ حكمه.**

وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامها، وجزائها؛ لينبّه عباده أنهم إذا عرفوا الله بذلك الاسم

العظيم عرفوا ما يترتب عليه من الأحكام، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، لم يقل: فلكم من العقوبة كذا؛ بل قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩]، أي: فإذا عرفتم عزته (وهو قهره، وغلبته، وقوته، وامتناعه)، وعرفتم حكمته (وهو وضعه الأشياء مواضعها، وتنزيلها مَحالّها)، أوجب لكم الخوف من البقاء على ذنوبكم وزللكم؛ لأن من حكمته معاقبة من يستحق العقوبة ـ وهو المصرُّ على الذنب مع علمه ـ وأنه ليس لكم امتناع عليه، ولا خروج عن حكمه وجزائه؛ لكمال قهره وعزّته.

وكذلك لما قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤]، لم يقل: فاعفوا عنهم، أو: اتركوهم، ونحوها؛ بل قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤]، يعني: فإذا عرفتم ذلك وعلمتموه عرفتم أن مَن تاب وأناب، فإن الله يغفر له ويرحمه فيدفع عنه العقوبة.

ولما ذكر عقوبة السارق، قال في آخرها: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، أي: عزَّ وحكم فقطع يد السارق، وعَزَّ وحكم فعاقب المعتدي شرعاً، وقدراً، وجزاء.

ولما ذكر الله مواريث الورثة وقدَّرها، قال: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١]، فكونه عليماً حكيماً يعلم ما لا يعلم العباد، ويضع الأشياء مواضعها، فاخضعوا لما قاله وفصَّله في توزيع الأموال على مستحقيها، الذين يستحقونها بحسب علم الله وحكمته، فلو وُكِل العباد إلى أنفسهم، وقيل لهم: وزِّعوه أنتم بحسب

اجتهادكم؛ لدخلها الجهل والهوى، وعدم الحكمة، وصارت المواريث فوضى، وحصل في ذلك من الضرر ما الله به عليم، ولكن تولاها وقسمها بأحكم قسمة وأوفقها للأحوال، وأقربها للنفع؛ ولهذا من قدح في شيء من أحكامه، أو قال: لو كان كذا، أو كذا، فهو قادح في علم الله، وفي حكمته؛ ولهذا يذكر الله العلم والحكمة بعد ذكر الأحكام، كما يذكرها في آيات الوعيد؛ ليبيِّن للعباد أن الشرع والجزاء مربوط بحكمته، غير خارج عن علمه، ويختم الأدعية بأسماء تناسب المطلوب، وهذا من الدعاء بالأسماء الحسنى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، أي: تعبّدوا لله بها، واطلبوه بكل اسم مناسب لمطلوبكم.

وقوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٩]، والآيات المتتابعة التي بعدها، كل واحدة خُتمت باسمين كريمين؛ فالأولى منها هذه، خَتْمُها بالعلم والحلم يقتضي علمه بنيّاتهم الجميلة، وأعمالهم الجليلة، ومقاماتهم الشامخة، فيجازيهم على ذلك بالفضل العظيم، ويعفو ويحلم عن سيئاتهم؛ فكأنهم ما فعلوها.

وخَتَم الثانية بالعفوِّ الغفور، فإنه أباح المعاقبة بالمثل، وندب إلى مقام الفضل ـ وهو العفو وعدم معاقبة المسيء ـ وأنه ينبغي لكم أن تعبدوا الله بالاتصاف بهذين الوصفين الجليلين؛ لتنالوا عفوه ومغفرته.

وخَتْمُ الآية الثالثة بالسميع البصير، يقتضي سمعه لجميع أصوات ما سكن في الليل والنهار، وبصره بحركاتهم على اختلاف الأوقات، وتباين الحالات.

وخَتْم الآية الرابعة بالعليّ الكبير؛ لأن علوَّه المطلق، وكبرياءه، وعظمته، ومجده، تضمحل معها المخلوقات، ويبطل معها كل ما عُبد من دونه، وبإثبات كمال علوّه، وكبريائه يتعين أنه هو الحق، وما سواه باطل.

وخَتَم الآية الخامسة باللطيف الخبير، الدالَّيْن على سِعة علمه وخبرته بالبواطن كالظواهر، وبما تحتوي عليه الأرض من أصناف البذور، وألوان النباتات، وأنه لطف بعباده حيث أخرج لهم أصناف الأرزاق بما أنزله من الماء النمير والخير الغزير.

وخَتَمَ الآية السادسة بالغني الحميد، بعد ما ذَكَر مُلكه للسماوات والأرض، وما فيهما من المخلوقات، وأنه لم يخلقها حاجة منه لها؛ فإنه الغني المطلق؛ ولا ليتكمّل بها، فإنه الحميد الكامل؛ وليدلّهم على أنهم كلهم فقراء إليه من جميع الوجوه، وأنه حميد في أقداره، حميدٌ في شرعه، حميدٌ في جزائه؛ فله الحمد المطلق ذاتاً، وصفاتاً، وأفعالاً.

وخَتْمُ الآية السابعة بالرؤوف الرحيم، أي: من رأفته، ورحمته، تسخيره المخلوقات لبني آدم، وحفظ السماوات والأرض، وإبقائها لئلا تزول فتختل مصالحهم، ومن رحمته سخّر لهم البحار؛ لتجري في منافعهم، ومصالحهم؛ فرحمهم حيث خلق لهم المسكن، وأودع فيه كل ما يحتاجونه، وحفظه عليهم، وأبقاه.

ولما ذكر في سورة الشعراء قصص الأنبياء مع أُممهم ختم كل قصة بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩، ٦٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٤٠، ١٥٩، ١٧٥، ١٩١]، فإن كل قصة تضمَّنت نجاة النبيّ وأتباعه؛

وذلك برحمة الله ولطفه، وإهلاك المكذبين له، وذلك من آثار عزته، وقد يتعلق مقتضى الاسمين بكل من الحالتين، فإنه نجّى الرسول وأتباعه بكمال قوته، وعزته، ورحمته؛ وأهلك المكذبين بعزته وحكمته. ويكون ذكر الرحمة يقتضي عظم جرمهم، وأنه لولا أن جرمهم تعاظم، وسدّوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يكن لهم طريق إليها، لَما أحلّ بهم العقاب.

وأما قول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، ولم يقل: أنت الغفور الرحيم. فإن المقام ليس مقام استعطاف واسترحام، وإنما هو مقام غضب وانتقام ممن اتخذه إلهاً مع الله، فناسب ذكر العزة والحكمة، وصار أولى من ذكر الرحمة.

ومن ألطف مقامات الرجاء: أنه يذكر أسباب الرحمة، وأسباب العقوبة، ثم يختمها بما يدل على الرحمة، مثل قوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٢٩]، وقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣]؛ وذلك يدلّ على أن رحمته سبقت غضبه وغلبته، وصار لها الظهور، وإليها ينتهي كل من وُجد فيه أدنى سبب من أسباب الرحمة، ولهذا يخرج من النار مَن كان في قلبه أدنى حبة خردل من الإيمان، ولنقتصر على هذه الأمثلة فإنه يعرف بها صفة الاستدلال بذلك.

التعليق

الخلاصة: تتضمن هذه القاعدة قاعدتين، أو قاعدة واحدة لها وجهان:

الأول: أن ختم الآية باسم من أسماء الله تعالى لا يكون إلا مناسباً لذلك الحكم. ولا يخرج عن هذه القاعدة شيء إلا لسبب، مثل قوله: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]، فقد يقول قائل: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم؛ لكن لما كان المقام مقام عزّة، وكمالُ تصرف؛ لكون هؤلاء لهم حالان: إما عذاب، وإما رحمة ومغفرة؛ فلهم ما تقتضيه العزة والحكمة بسبب عنادهم واستكبارهم.

الوجه الثاني: أن ختم الآية باسم من أسماء الله يدل على أن الحكم مطابق لذلك الاسم. وهذا الوجه غير الوجه الأول، فمثلاً قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤]، يتوقع الإنسان أن يقال: فتسقط عنهم العقوبة، لكنه لم يقل هكذا، وإنما قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤]، أي: لقد سقط عنهم الحدّ بمقتضى مغفرة الله ورحمته. ومن ذلك قوله تعالى في المولي: ﴿فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٦ ـ ٢٢٧]؛ لأن فَيْأهم إلى زوجاتهم مما يحبه الله ويكون سبباً للمغفرة والرحمة. وأما عزمهم الطلاق، فهو أمر ليس محبوباً إلى الله، ولهذا قرنه بما يفيد أو يشير إلى نوع من العقوبة، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

فائدة: المعرّف «بأل» يدل على ملاحظة أصل الصفة، مثل:

الفضل، العباس؛ فمثلاً: قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وفي آية أخرى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]. الآيتان سواء في اللفظ وفي كل شيء، إلا في التعريف في سميع عليم، فتكون الآية الأولى لوحظ فيها مطلق الصفة، والثانية لوحظ فيها كمال الصفة.

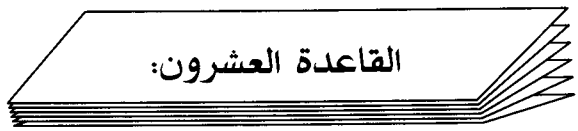

القرآن كله محكم باعتبار، وكله متشابه باعتبار، وبعضه محكم وبعضه متشابه باعتبار ثالث.

وقد وصفه الله تعالى بكل واحدة من هذه الأوصاف الثلاث، فوصفه بأنه محكم في عدة آيات؛ وأنه: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، ومعنى ذلك: أنه في غاية الإحكام، ونهاية الانتظام، فأخباره كلها حق وصدق لا تناقض فيها ولا اختلاف، وأوامره كلها خير وبركة وصلاح، ونواهيه متعلِّقة بالشرور، والأضرار، والأخلاق الرذيلة، والأعمال السيئة، فهذا إحكامه.

ووصفه بأنه متشابه في قوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣]، أي: متشابهاً في الحسن، والصدق، والحق، وروده بالمعاني النافعة المزكية للعقول، المطهِّرة للقلوب، المصلِحة للأحوال؛ فألفاظه أحسن الألفاظ، ومعانيه أحسن المعاني.

ووصفه بأن: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، فهنا وصفه بأن بعضه هكذا، وبعضه هكذا، وأن أهل العلم بالكتاب يردون المتشابه منه إلى المحكم، فيصير كله محكماً، ويقولون: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، أي: وما كان من عنده فلا تناقض فيه، فما اشتبه منه في موضع فسَّره الموضع الآخر المحكم؛ فحصل العلم، وزال الإشكال؛ ولهذا النوع أمثلة:

منها: ما تقدم من الإخبار بأنه على كل شيء قدير، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، فإذا اشتبهت على من ظنّ به خلاف الحكمة، وأن هدايته وإضلاله يكون جزافاً لغير سبب، وضّحت هذا الإطلاق الآيات الأُخر، الدالّة على أن هدايته لها أسباب يفعلها العبد ويتصف بها؛ مثل قوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]، وأن إضلاله لعبده لها أسباب من العبد، وهو تولّيه للشيطان ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠]، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥]. وإذا اشتبهت على الجبري، الذي يرى أن أفعال العباد مجبورون عليها، بيَّنتها الآيات الأُخر الكثيرة، الدالّة على أن الله لم يجبر العباد، وأن أعمالهم واقعة باختيارهم وقدرتهم، وأضافها إليهم في آيات غير منحصرة؛ كما أن هذه الآيات التي أضاف الله فيها الأعمال إلى العباد، حسنها وسيئها، إذا اشتبهت على القدرية النفاة، وظنّوا أنها منقطعة عن قضاء الله وقدره، وأن الله ما شاءها منهم، ولا قدّرها، تُليت عليه الآيات الكثيرة الصريحة بتناول قدرة الله لكل شيء من الأعيان، والأعمال، والأوصاف، وأن الله خالق كل شيء، ومن ذلك أعمال العباد، وأن العباد لا يشاؤون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين. وقيل للطائفتين: إن الآيات والنصوص كلها حق، ويجب على كل مسلم تصديقها، والإيمان بها كلها، وأنها لا تتنافى، فهي واقعة منهم، وبقدرتهم وإرادتهم، والله تعالى خالقهم، وخَلَق قدرتهم وإرادتهم، وما أُجمل في بعض الآيات فسَّرته آيات أُخر، وما لم يتوضح في موضع توضح في موضع آخر، وما كان معروفاً بين الناس، وورد فيه القرآن، أمراً، أو

نهياً، كالصلاة، والزكاة، والزنى، والظلم، ولم يفصله، فليس مجملاً؛ لأنه أرشدهم إلى ما كانوا يعرفون، وأحالهم على ما كانوا به متلبّسين، فليس فيه إشكال بوجه، والله أعلم.

التعليق

هذه القاعدة بيّن فيها المؤلف أن الله تعالى وصف القرآن بأنه مُحْكَمٌ، وبأنه متشابه، وبأنه جامع بينهما؛ مُحْكَمٌ ومتشابه.

فعلى المعنى الأول: محكم، أي: متقن، فأخباره صدق وأحكامه عدل؛ لأن الخلل في الخبر يكون بمخالفة الصدق، والخلل في الحكم يكون بمخالفة العدل؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

إذن: كله محكم من هذا الوجه، أي: متقن في أخباره وفي أحكامه، ففي أخباره نقول: كلها صدق ليس فيها كذب، وفي أحكامه: كلها عدل ليس فيها جور ولا ظلم بوجهٍ من الوجوه، ونزيد أيضاً بالنسبة لشريعة الإسلام المحمدية أن أحكامها كلها يسر ليس فيها مشقة، كما قال الله تعالى في وصف النبيّ ﷺ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ووصفه بأنه متشابه، أي: يشبه بعضه بعضاً في الكمال، والجودة في الأسلوب، والبلاغة في الصدق، والعدل، وفي النفع، وفي كل شيء، فبعضه يشبه بعضاً لا يخالفه أبداً، ولا يناقضه؛ فجمع بين الأمرين: الإحكام والتشابه، فمعنى الإحكام هنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]، أي: واضحات جليات؛ فالإحكام هنا بمعنى الإيضاح والبيان. والمتشابه هو: الخفي المعنى الذي لا يتبين وجه صوابه إلا للراسخين في العلم؛

ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧]، يعني: وأما الراسخون في العلم فيقولون: آمنا به ويعلمون منه ما يخفى على غيرهم، وهنا محط النزاع ومحكّ الأفكار وموضع الاختبار، فإن من الناس مَن إذا رأى مثل هذه النصوص المتشابهة التي ظاهرها يخالف بعضاً أخذ منها سبباً للطعن في القرآن الكريم، وقال: إن هذا القرآن يتناقض، يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ثم يقول: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ إذا كان سميعاً بصيراً، فقد ماثل مَن له سمع وبصر! إذن فيه اشتباه. وقوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] يناقض قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢] يناقض قوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] فمثل هذه الآيات قد يقول قائل: كيف؟ هذا تناقض! نعم هم قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، ويقول في الآية الأخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، فالذي حلف أنه ليس مشركاً كاتم، بل حالف على ذلك وهو كاذب، فهذا تناقض، وقائل هذا هم الذين في قلوبهم زيغ، والعياذ بالله، يتبعون هذا المتشابه.

الوجه الثالث: المحكم، تعريفه: الواضح البيِّن، والمتشابه: الخفي الذي لا يتبين إلا للراسخين في العلم.

فإن قلت: ما الحكمة في أن الله عز وجل يجعل هذا؟ لماذا لم يكن القرآن كله محكماً ظاهر المعنى بيِّناً؟

قلت: الحكمة في ذلك الامتحان والاختبار؛ لأن الزائغين

يتخذون من ذلك مطعناً في القرآن ليبرّروا لأنفسهم الكفر به والعياذ بالله، وأما الراسخون في العلم، فيتخذون من هذا بياناً للحكمة؛ حكمة الله جل وعلا في جعل القرآن على هذين الوجهين محكماً ومتشابهاً، حتى يحيا من حي عن بيِّنة، ويهلك من هلك عن بيِّنة، وهذا كما نراه في كلمات الله الشرعية يكون أيضاً في كلمات الله الكونية؛ فمثلاً: قد يأتي رجل إلى صاحب قبر، فيقول: يا ولي الله، يا سيدي! يا ملجئي! يا مستغاثي! أنقذ ولدي من المرض، فإذا ذهب إلى البيت وجد ولده قد برئ! فيقع في اشتباه أن الذي أجاب دعوته، هذا الولي صاحب القبر، لكن عندما يرد مثل هذه الحال إلى الراسخين في العلم، يقولون: لا يمكن أن يكون هذا من صاحب القبر؛ لأن صاحب القبر ليس إلٰهاً دون الله سبحانه وتعالى؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٢]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]، فيقول الراسخون في العلم: نحن نعلم علم اليقين أن هذا البرء ليس من أثر دعاء هؤلاء، ولكنه فتنة من الله عز وجل حصل عند دعاء هؤلاء، لا بدعائهم.

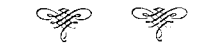

القاعدة الحادية والعشرون:

القرآن يجري في إرشاداته مع الزمان، والأحوال، في أحكامه الراجعة للعرف، والعوائد.

وهذه قاعدة جلية المقدار، عظيمة النفع؛ فإن الله أمر عباده بالمعروف (وهو: ما عُرف حُسنه شرعاً، وعقلاً، وعرفاً)، ونهاهم عن المنكر (وهو: ما ظهر قبحه شرعاً، وعقلاً، وعُرفاً)، وأمر المؤمنين بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ووصفهم بذلك؛ فما كان من المعروف لا يتغير في الأحوال، والأوقات؛ كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وغيرها من الشرائع الراتبة، فإنه أمر به في كل وقت، والواجب على الآخِرين نظير الواجب على الأوّلين من هذه الأُمّة، وما كان من المنكر لا يتغير كذلك بتغير الأوقات؛ كالشرك، والقتل بغير حق، والزنى، وشرب الخمر ونحوها؛ ثبتت في كل زمان ومكان، لا تتغير، ولا يختلف حكمها، وما كان يختلف باختلاف الأمكنة، والأزمنة، والأحوال، هو المراد هنا؛ فإن الله تعالى يردّهم فيه إلى العرف، والعادة، والمصلحة المتعيّنة في ذلك الوقت؛ وذلك أنه أمر بالإحسان إلى الوالدين بالأقوال والأفعال، ولم يعيِّن لعباده شيئاً مخصوصاً من الإحسان والبر؛ ليعمّ كل ما تجدَّد من الأوصاف والأحوال، فقد يكون الإحسان إليهم في وقت غير الإحسان في الوقت الآخر، وفي حق شخص دون حق الشخص الآخر؛ فالواجب الذي أوجبه الله: النظر في الإحسان المعروف في وقتك، ومكانك، في حقِّ والديك.

ومثل ذلك ما أمر به من الإحسان إلى الأقارب، والجيران، والأصحاب ونحوهم؛ فإن ذلك راجع في نوعه وجنسه وأفراده إلى ما يتعارفه الناس إحساناً، وكذلك ضدّه من العقوق، والإساءة، ينظر فيه إلى العرف.

التعليق

يعني: ما تعارف عليه الناس أن هذه صلته يكفي؛ لأنه أمر بالصلة وأطلق، فيرجع فيه إلى ما سماه الناس صلة؛ لأن المقصود بالصلة زوال ما في القلوب وائتلافها، إذا كان هذا الرجل قد وطَّن نفسه على أن صاحبه أو قريبه لا يزوره إلا في يوم العيد أو في الأسبوع أو ما أشبه ذلك، ما صار ذلك قطيعة، فما عُدَّ صلة فهو صلة، أما من كان لا يأتيهم أبداً، ولا يأتيهم في المناسبات ولا يدري عنهم ولا يزورهم ولا يعرف إذا مرضوا أو ماتوا، فهذه قطيعة.

وقول الشيخ ـ رحمه الله ـ: «**راجع في نوعه وجنسه وأفراده**» النوع يختلف؛ فمثلاً: أحد تصله بدراهم، وأحد تصله بثوب، وأحد تصله بقلم، حسب الأفراد. حسب الجنس: لو أعطيت شخصاً كبيراً عظيماً غنياً مئة ريال لغضب عليك، ولو أعطيتها قريباً فقيراً، لفرح وسرَّه ذلك.

أما ما دلّ الشرع على تحريمه، فهذا لا يكون صلة؛ فلو أن الناس قالوا: نحن تعارفنا أن ابنة العم تصافح ابن عمها بيدها، ولو قالت له: هذا حرام، وكفّت يدها؛ لغضب، نقول: الشيء الذي نصّ الشرع على تحريمه لا يمكن أن يتواصل الناس به أبداً.

❑ ❑ ❑

وكذلك قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ فردَّ الله الزوجين في عشرتهما وأداء حق كل منهما على الآخر على المعروف المعتاد عند الناس في قطرك، وبلدك، وحالك؛ وذلك يختلف اختلافاً عظيماً لا يمكن إحصاؤه عدّاً، فدخل ذلك كله في هذه النصوص المختصرة، وهذا من آيات القرآن، وبراهين صدقه.

وقال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦]؛ فأمر عباده بالأكل والشرب، واللباس، ولم يعيِّن شيئاً من الطعام والشراب، واللباس، وهو يعلم أن هذه الأمور تختلف باختلاف الأحوال، فيتعلَّق بها أمره حيث كانت، لا ينظر إلى ما كان موجوداً منها وقت نزول القرآن فقط.

وكذلك قوله: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ومن المعلوم أن السلاح والقوة الموجودة وقت نزول القرآن غير نوع القوة الموجودة بعد ذلك، فهذا النص يتناول كل ما يُستطاع من القوة في كل وقت بما يناسبه ويليق به.

وكذلك لما قال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، لم يعيّن لنا نوعاً من التجارة، ولا جنساً، ولم يحدِّد لنا ألفاظاً يحصل بها الرضى، وهذا يدل على أن الله أباح كل ما عُدَّ تجارة ما لم ينه عنه الشارع، وأن كل ما حصل به الرضى من الأقوال والأفعال انعقدت به التجارة، فما حقّق الرضى من قول أو فعل انعقدت به المعاوضات، والتبرعات، وكم في القرآن من هذا النوع شيء كثير.

القاعدة الثانية والعشرون:

في مقاصد أمثلة القرآن.

اعلم أن القرآن الكريم احتوى على أعلى، وأكمل، وأنفع المواضيع التي يحتاج الخلق إليها في جميع الأنواع، فقد احتوى على أحسن طرق التعليم، وإيصال المعاني إلى القلوب بأيسر شيء وأوضحه؛ فمن أنواع تعاليمه العالية: ضرب الأمثال، وهذا النوع يذكره الباري في الأمور المهمّة؛ كالتوحيد، وحال الموحِّد، والشرك، وحالة أهله، والأعمال العامة الجليلة، ويقصد بذلك كله توضيح المعاني النافعة، وتمثيلها بالأمور المحسوسة؛ ليصير القلب كأنه يشاهد معانيها رأي عين، وهذا من عناية الباري بعباده، ولطفه، فقد مثَّل الله الوحي والعلم الذي أنزله على رسوله في عدة آيات بالغيث والمطر النازل من السماء، وقلوب الناس بالأراضي والأودية، وأن عمل الوحي والعلم في القلوب كعمل الغيث والمطر في الأراضي؛ فمنها أراضٍ طيبة تقبل الماء، وتنبت الكلأ والعشب الكثير، كمثل القلوب الفاهمة، التي تفهم عن الله ورسوله وحيه، وكلامه، وتعقله، وتعمل به: علماً، وتعليماً، بحسب حالها؛ كالأراضي بحسب حالها. ومنها أراضٍ تمسك الماء ولا تنبت الكلأ، فينتفع الناس بالماء الذي تمسكه، فيشربون ويسقون مواشيهم وأراضيهم؛ كالقلوب التي تحفظ الوحي من القرآن والسنة، وتلقيه إلى الأُمة، ولكن ليس عندها من الدراية والمعرفة بمعانيه ما عند الأولين، وهؤلاء على خير، ولكنهم